مجلة الصحافة

العدد (3) | السنة الأولى | خريف 2016

رحلة الجزيرة في طريق وعر

مركز الجزيرة الإعلامي
للتدريب والتطوير

محتويات العدد

4 "تكرير" البيانات الخام في القصة الصحفية
عمرو العراقي

10 المسافة المضطربة بين الرأي والخبر
منتصر مرعي

14 الإذاعات على قيد الحياة وصحافتها تموت
عبد المحسن القباني

16 «ليلة طيبة وحظا سعيدا» للصحفيين
منى حوا

20 هندسة العنوان في البناء الصحفي
إسماعيل عزام

26 أنا وآزاد ومعركة الأفكار المسبقة
عبد القادر فايز

32 العالم العربي يدون من جديد
صباح حمامو

38 المقابلة الصحفية.. متعة الحوار
ندى الأزهري

42 درس في الأنسنة من قاع العالم
عميد شحادة

46 رحلة الجزيرة في طريق وعر
غسان أبو حسين

54 كيب تاون.. حراك شعبي قديم ولغة صحفية جديدة
غاريث فان نيكرك

58 كيف تكتب قصة مؤثرة في إنستغرام؟
نيل شيا

68 برناردو توبار.. العدسة الأقدم في إلباييس الإسبانية
سارة حابيبي

كانت من أبرز المحطات في رحلة قناة الجزيرة، تغطية الاجتياح الإسرائيلي للضفة الغربية ومحاصرة مقر الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات. (رويترز)

كتاب المجلة

عمرو العراقي
صحفي بيانات يجيد سرد القصص الصحفية من خلال الأرقام، حاصل على عدد من الجوائز الدولية من المركز الدولي للصحفيين

منتصر مرعي
صحفي فلسطيني ومخرج أفلام وثائقية في شبكة الجزيرة الإعلامية.

عبد المحسن القباني
محاضر متخصص في الصحافة المرئية والمسموعة ومراسل إخباري سابق في الجزيرة وسكاي نيوز عربية وقناة العربية.

منى حوا
مدونة فلسطينية. منتجة في قناة الجزيرة الوثائقية. كاتبة في عدة مواقع عربية.

إسماعيل عزام
صحفي في موقع «سي إن إن» بالعربية. كتب في عدة مواقع منها هسبريس وشبكة الصحفيين الدوليين.

عبد القادر فايز
صحفي فلسطيني، مدير مكتب شبكة الجزيرة في طهران. غطى بدايات الثورة الليبية عام 2011، ورصد كمراسل ميداني عملية انسحاب القوات الأميركية من العراق.

صباح حمامو
صحفية مصرية، عملت في مؤسسات الأهرام والجزيرة وهافنيغتون بوست عربي. مؤلفة كتاب «عشرون عاما بين دهاليز المؤسسة العميقة».

ندى الأزهري
صحفية سورية مقيمة في فرنسا، تكتب في الثقافة عامة وفي السينما خاصة. مؤلفة كتاب «السينما الإيرانية الراهنة».

عميد شحادة
مراسل تلفزيوني في قسم القصص الصحفية والإنسانية في وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية «وفا».

غسان أبو حسين
كاتب وصحفي. مدير الانتقاء البرامجي في قناة الجزيرة الوثائقية.

غاريث فان نيكرك
صحفي في القسم الثقافي مقيم في جوهانسبيرغ. زميل في مؤسسة آمبرساند في نيويورك ومعهد سيمثسونيان في واشنطن دي سي.

نيل شيا
صحفي وكاتب في مجلة ناشيونال جيوغرافيك. ابتكر مؤخرا أساليب جديدة لكتابة القصص المعززة بالصور على شبكات التواصل الاجتماعي.

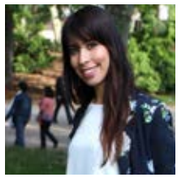

سارة حابيبي
صحفية ومقدمة برامج مغربية مقيمة في إسبانيا. عملت سابقا في مجال الوثائقيات والأفلام المؤسساتية.

عقدان من الريادة

لا تكمن الصعوبة في تناول مسيرة مؤسسة إعلامية مثل الجزيرة بسني عمرها، فتجربة عقدين من الزمن ليست طويلة قياسا بتجربة مؤسسات إعلامية أعرق بكثير، إلا أن الأعوام العشرين الماضية كانت مزدحمة بالمحطات الكبيرة والإنجازات اللافتة. ورصد مثل هذه التجربة مهمة يعقدها ما أثارته من جدل مع وضدّ، وتحريك لمياه الإعلام العربي الراكدة على مدى عقود طويلة، وأزمات سياسية متلاحقة خلقتها سياسة الإعلام الحر الذي تبنته الجزيرة، كقناة وكشبكة لاحقا.

حاولت الجزيرة على مدى عقدين أن تحصر لعبتها وحراكها في ميدان الإعلام كمهنة، بعيدا عن الإعلام المسيس الذي ألفته المنطقة، غير أن الأخير أصر في محطات كثيرة على محاكمتها من منظوره وأدواته التي اعتاد عليها، وهو ما خلق لها أزمات مع أنظمة عربية عديدة تمثلت في سحب الترخيص والاعتقال والاعتداء وحملات التشويه وحتى التشويش الفني.

وبالطبع لا تخلو مسيرة عقدين لقناة أو شبكة تسيّدت المشهد الإعلامي العربي ونافست كبريات وسائل الإعلام العالمي؛ من مطبات أو إخفاقات، لكن أبرز ما يمكن أن يسطر في سجلات مجد الجزيرة أنها باتت مدرسة تحتذى في الفضاء الإعلامي العربي، فسياساتها التحريرية وبرامجها المميزة ولغتها المهنية تُعتمد اليوم في معظم القنوات الإخبارية العربية، وحتى في نشرات الأخبار في القنوات غير الإخبارية.

ما ظهر كقناة إخبارية عربية قبل عشرين عاما بات اليوم شبكة إعلامية متكاملة لا منافس لها بهذا التكامل في المنطقة العربية، وربما في العالم، فهي تقدم الخدمة الإعلامية بكافة أشكالها من أخبار بلغات عدة، وأفلام وثائقية ودراسات معمقة، وتدريب على العمل الإعلامي المحترف، وهو ميدان آخر يميّز الجزيرة في مسيرتها.
سيبقى الجدل قائما حول ما قدمته هذه القناة للمنطقة العربية، لكننا في هذا العدد من مجلة «الصحافة» نقف مع بعض التجارب الميدانية لأبناء الجزيرة، نستطيع من خلالها تحديد بعض ملامح العمل فيها، كما ننفتح على تجارب عربية وعالمية.

فريق المجلة

مجلة الصحافة

العدد (3) I السنة الأولى I خريف 2016
مجلة فصلية تصدر عن
مركز الجزيرة الإعلامي للتدريب والتطوير
شبكة الجزيرة الإعلامية

المشرف العام
منير الدائمي

رئيس التحرير
منتصر مرعي

سكرتير التحرير
غدير أبو سنينة

مراجعة لغوية
الفضيل بن سعيد

تصميم
إدارة الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية

مجلة الصحافة
Aljazeera Journalism Review

موقع الإنترنت:
http://training.aljazeera.net/ajr

تويتر:
AJR_Arabic@

فيسبوك:
www.facebook.com/
aljazeerajournalismreview

بريد المجلة الإلكتروني:
ajreditor@aljazeera.net

”تكرير“ البيانات الخام في القصة الصحفية

عمرو العراقي

يتطلب عمل صحفي البيانات مهارات تبدأ من الحصول على البيانات ثم تجريفها وبناء قاعدة لها والتحقق منها وتحليلها ثم سردها بصريا وكتابتها على شكل أكواد برمجية، للحصول على قصة صحفية جديدة.

مطلع مارس/آذار 2013، زُرت الولايات المتحدة الأميركية للمرة الأولى في رحلة دراسية استغرقت ثلاثة أسابيع، ضمن برنامج أعده المركز الدولي للصحفيين.

باحثا عن أسرار المهنة وتفاصيلها، جُلت في أشهر صالات التحرير.. واشنطن بوست ويو.أس تودي. وفي الطابق الثامن من واشنطن بوست، كان بانتظاري مدير التحرير ومديرة قسم الشؤون الدولية وشاب يدعى «يوري» عَرَّفَ نفسه بأنه مدير قسم الديجيتال ميديا. يوري الأصغر مني سنا يشغل منصبا حيويا في الصحيفة الذائعة الصيت بأميركا، لذا كان عمله موضع اهتمامي.. سألته عن مهامه اليومية فقال: أحرر قصصا تثير الانتباه وأسردها بطريقة تفاعلية تناسب نمط متصفحي المواقع الإلكترونية، وأستخدم في ذلك بعض الأكواد. ثم أخذ يعرض لي قصته الأخيرة عن حركة الرياح فوق الولاية وكثافة الثلج المتساقط من خلال صورة بانورامية تحمل كما من البيانات.

كان هذا قبل ثلاث سنوات من معرفتنا نحن لهذه التقنية بعدما أتاحتها لنا شبكات التواصل الاجتماعي.. أدركتُ حينها أن الصحافة لم تعد تقتصر على كتابة القصة بحرفة لغوية فقط، وأن الخبر لم يعد أن يعض الرجل كلبا، والصراع ما عاد على الوصول إلى السبق الصحفي. ولا شك أن الصورة النمطية المأخوذة عن الصحفيين في السنوات الأخيرة قد تغيرت بشكل ملحوظ مقارنة بما كانت عليه في القرن الماضي، فلم يعد الصحفي يقف أمام جهاز الفاكس ينتظر وصول إشعار حكومي ليحرره وينشره، ولم يعد يحمل في حقيبته قصاصات الورق الداكنة ليدون عليها تصريحات المصادر. فصحفيو اليوم يمكثون الوقت الأكبر من ساعات عملهم أمام أجهزة الحاسوب يراقبون الأحداث ويبحثون عن المعلومات التي يمكن أن تقودهم إلى قصص صحفية مثيرة لاهتمام القراء. وكذلك تغيرت سمات القارئ أيضا بشكل سريع تماشيا مع تطور التكنولوجيا، فالقارئ الذي كان يستقطع من يومه بضع ساعات ليتصفح الجريدة في شرفة منزله؛ لم يعد موجودا في الوقت الراهن.

لقد جلبت التكنولوجيا معها أسلوبا جديدا في العمل الصحفي، تغيرت بمقتضاه الممارسات الصحفية القديمة. وبالتزامن مع المزج الذي شهدته غرف الأخبار بين ممارسات العمل الصحفي التقليدي، وما يمكن أن تقوم به أجهزة الحاسوب من تخزين وتنظيم للبيانات، وكذلك إخراج وعرض القصة الصحفية بطريقة أكثر تفاعلية وجذبًا للقارئ، تخلصت الصحافة من مشكلة ندرة البيانات بفضل تطور وسائل التواصل الحديثة. فبين الحين والآخر يظهر عدد جديد من التسريبات والوثائق، وكان آخرها «وثائق بنما» التي كشفت الغبار عن شبكات الفساد والتهرب الضريبي حول العالم.

لكن البيانات الخام وحدها لا يمكن أن تصبح قصة صحفية، فمن الصعب أن يتصفح القارئ جداول البيانات الضخمة ليستنتج المغزى منها. مع هذا، لا يمكن الجزم بأن القارئ غير مهتم بقواعد البيانات، فهو يعرف أن خلف هذه الأرقام الكثير من القصص والأسئلة التي تحتاج الإجابة عليها إلى معادلات حسابية بسيطة وحرفيَّة في سرد الأرقام، فيأتي دور وسائل الإعلام والصحفيين لتقديم قصة صحفية يفهمها القارئ.

الحصول على البيانات

هناك طرق عديدة للحصول على البيانات، منها ما يتم بطريقة مباشرة من خلال استطلاعات الرأي أو المشاهدة والتجربة، أو غير مباشرة مثل مطالبة المؤسسات والهيئات الحكومية وغيرها بالإفصاح عن حزم محددة من البيانات يحتاج إليها الصحفي لإثبات فرضية تقوم عليها قصته الصحفية. أما الطريقة الأخرى -وهي أسرع وأسهل- فهي البحث المختلفة، بالإضافة إلى مهارات التعامل مع محركات البحث على الإنترنت بهدف الوصول إلى البيانات والقدرة على جمعها ونقلها من صورتها الأصلية إلى جداول بيانات داخل تطبيقات الحاسوب التي تسهّل عملية تنظيمها وعرضها.

العديد من تلك المهارات يندرج تحت الممارسات التقليدية للعمل الصحفي، لكن بتغير التقنية أو الأداة، فمن المهارات ما هو مرتبط بتطور أسلوب سرد القصص الصحفية لتأخذ صورا بصرية تفاعلية وجاذبة، ومنها ما هو متعلق بمهارات التعامل مع البيانات للحصول

متظاهرون ضد رئيس وزراء آيسلندا السابق سيجموندور ديفيد جونلوجسون بعدما كشفت وثائق بنما المسربة أن زوجته امتلكت شركة في إحدى الدول التي تعتبر من «الجنات الضريبية» ولديها مطالبات بحق المصارف المنهارة في البلاد. أيسلندا، 4 أبريل/نيسان 2016 - رويترز.

وليتماشى الصحفي مع عالم الصحافة اليوم، وخصوصا صحافة البيانات، فإنه بحاجة إلى امتلاك العديد من المهارات التي قد تمثّل نقطة التقاء عدد كبير من المجالات. ومن تلك المهارات القدرة على جمع البيانات من بين مجموعة واسعة من المصادر على قصة صحفية بداخلها، مثل السعي نحو الإجابة على أسئلة معينة، أو العمل على إحصائية اكتشفت أنها خاطئة.. أن تدع الأرقام تخبرك بموضوع القصة الصحفية التي يمكن أن تكون غير مُقررة أو أن تتغير بعد أن تبدأ العمل.

عن البيانات على شبكة الإنترنت من خلال محركات البحث المختلفة أو في المواقع المعنية بنشر قواعد البيانات، وهنا ينبغي على الصحفي التعرف على المهارات المناسبة لكل طريقة، فالجمع المباشر للبيانات يحتاج إلى أسس اختيار

لم يعد الصحفي يقف أمام جهاز الفاكس ينتظر وصول إشعار حكومي ليحرره وينشره. (غيتي إميجيز)

العينة وطرق منهجية لبناء استطلاعات الرأي، كما أن مطالبة المؤسسات والهيئات تحتاج إلى معرفة الصحفي بالحد المسموح لحق المطالبة بالبيانات وكيفية التفاوض مع هذه المؤسسات للحصول عليها.

أما الطريقة الأخيرة فتتطلب معرفة الصحفي بمهارة البحث على شبكة الإنترنت واستخدام الكلمات المفتاحية المناسبة التي تقوده للعثور على البيانات التي يحتاجها بالصيغة التي يمكنه التعامل معها.

وقد يستغرق البحث عن البيانات وقتا أطول إذا لم يكن لدى الصحفي مهارات في البحث على شبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي. ويُفضّل دائما استخدام الصحفيين حق الحصول على المعلومات الذي يتيحه القانون في بعض بلاد العالم، لمخاطبة الهيئات والمؤسسات الحكومية لتزويدهم بالبيانات المطلوبة.

تجريف البيانات

قد تكون هي المرة الأولى التي تسمع فيها هذا المصطلح يتداول بين الصحفيين، والمقصود به هو عملية استخراج البيانات من الصيغ المختلفة التي عادة ما تكون صعبة التعامل معها حاسوبيًّا، ثم وضعها في صورة يسهل بها تفعيل تعامل تطبيقات الحاسوب مع حزمة البيانات.

قد تنجح في العثور على البيانات المطلوبة، لكنك ستجدها غالبا معقدة، ولن يسعفك الحظ دوما في القدرة على نسخها ولصقها في جدول، إذ قد تأتي البيانات في صيغة ملفات «بي.دي.أف» أو صور أخذت بواسطة الماسح الضوئي.. حينها، يصعب إجراء المعادلات الحسابية المباشرة على هذه البيانات من خلال هذه الصيغ، ويبقى التحدي الرئيسي هو نقل جداول البيانات.

المهارات التي يحتاج إليها الصحفي من أجل معالجة هذه الإشكالية تقنية وليست صحفية، إذ يتطلب الأمر معرفته بالتطبيقات والبرامج التي تعالج كل صيغة من صيغ البيانات المختلفة على حدة، وتجعل منها بيانات يسهل التعامل معها حاسوبيا. ومن بين هذه التطبيقات تطبيقا Import.io و Kimono.

بناء قاعدة البيانات

المقصود هنا ليس جمع البيانات بمعنى الحصول عليها من مصادرها، وإنما ضمّها في جدول واحد بعد إحضارها من مصادر وصيغ مختلفة. فإذا كانت بعض الملفات إلكترونية وبعضها مطبوعة، فيجب جمعها بالصيغتين في حزم مرتبطة بعضها ببعض لتكون في جدول بيانات واحد نظيف. وتتطلب هذه المرحلة من الصحفي مهارة بناء قواعد البيانات باستخدام عدد من التطبيقات المتنوعة مثل برنامج «مايكروسوفت إكسل» (Microsoft Excel)، أو عبر خدمة جداول البيانات «غوغل سبريد شيت» (Google Spreadsheets).

التحقق من البيانات

عليك أن تتحقق أولا من صحة ودقة البيانات التي حصلت عليها، وبخاصة إذا كانت هذه البيانات غير منسوبة إلى مصدر أو جهة رسمية. فما يميز الصحفي المحترف عن غيره هو قدرته على التدقيق في البيانات للوصول إلى الحقائق. وتعد القاعدة الرئيسية للتحقق هي البحث عن مصدر آخر للتأكد. وتتطلب مرحلة التحقق من البيانات مهارة استجواب، بمعنى طرح العديد من التساؤلات المتعلقة بها.. عن مصدرها وطبيعتها وتوقيت نشرها وطريقة جمعها والمنهجية التي جُمعت على أساسها والغرض من نشرها.

تنظيف البيانات

هذه الخطوة تأخذ الكثير من الوقت والجهد من أجل جعل بياناتك منظمة، فعندما تحصل على مجموعة البيانات فمن المرجح أن تجد بعض الأخطاء. ويمكن أن يحالفك الحظ ولا تحتاج إلى هذه العملية -وذلك في أضيق الحدود- فغالبا لا تأتي قواعد البيانات في صورة تسمح لنا بتحليلها مباشرة، إذ قد تحتوي على الكثير من الخلايا الفارغة وبعض القيم المفقودة، أو بعض الخانات التي تحوي اختصارات، أو قد تكون مكتوبة بطريقة خاطئة تجعل برامج تحليل البيانات غير قادرة على فهمها والتعامل معها.

وفي بعض الأحيان تكون البيانات المرسلة إليك أو تلك التي قمت بتجميعها من مصادر مختلفة مكتوبة بصيغ عدة، بعضها كُتب بطريقة مختصرة والبعض الآخر كُتب بتفصيل، وهو ما يتسبب في حدوث عدم تطابق في العديد من الكلمات والجمل التي تستخدم لتعني الشيء نفسه. في هذه الحالة، تحتاج إلى إيجاد طريقة لوضع معايير لتوحيد تلك الكلمات. وبالرغم من أن تلك المشاكل تبدو بسيطة ويسهل التغلب عليها، فإن الأمر ليس على هذا النحو إذا كانت البيانات التي تعمل عليها ضخمة، وهو ما يتطلب إيجاد طريقة تحل كافة هذه المشكلات بضغطة زر دون بذل المزيد من الجهد أو فقد الكثير من الوقت. ويعد استخدام «غوغل ريفاين» (Google Refine) الأداة الأفضل للتعامل مع هذا النوع من البيانات التي تحتوي على كلمات مختلفة تحمل نفس المعنى.

تحليل البيانات

المهارات المطلوبة هنا تتطلب قدرة الصحفي على التحليل العميق للبيانات وإجراء المقارنات والاستنتاجات، والتعامل مع برامج الحاسوب المختلفة التي تقوم بجدولة البيانات وحساب المعادلات الرياضية للوصول إلى نتائج تعكس دلالة هذه الأرقام. وهناك العديد من البرامج والتطبيقات التي يمكن أن تساعد الصحفيين على تحليل البيانات، منها مثلا برنامج «مايكروسوفت إكسل» الذي يتضمن مجموعة كبيرة من الاختصارات لمعادلات حسابية متنوعة تساعد الصحفيين على إنجاز مهمتهم الشاقة في تحليل البيانات، وداخل كل خلية يمكنك استخدام صيغ بسيطة من شأنها أن تساعدك على حساب كل شيء تقريبا.. من المتوسط الحسابي وتحديد القيمة الأكبر والقيمة الأصغر، بالإضافة إلى حسابات أكثر تعقيدا مثل الاتجاهات والانحدارات.

فمعرفة الصحفي بالحد الأدنى والرئيسي من المعادلات الحسابية يكفي ليساعده على فك لغز الأرقام وكشف علاقاتها بعضها ببعض. ولا يتطلب الأمر أن يكون الصحفي ملما بكافة أساسيات علم الإحصاء لتحليل البيانات.

السرد البصري للبيانات

في النهاية ينبغي أن يكون لدى الصحفي القدرة على تحويل البيانات إلى قصة صحفية وسرد المعلومات والأرقام في سياق سلس ومنطقي، والقدرة على وضع القصة الصحفية في صورة بصرية واضحة، إذ يعد التصوير البصري للبيانات وسيلة فعالة للمساعدة على اجتياز الفجوة بين البيانات والمعرفة. وذلك لا يتطلب بالضرورة استخدام الصحفي لبرامج التصميم، لأن هناك العديد من التطبيقات المتاحة على شبكة الإنترنت تقوم بالمهمة ذاتها.

عليك أن تتمكن من تحديد الشكل البصري المناسب لطبيعة البيانات التي تمتلكها، وكيفية طرحها. قم بوضع الهيكل العظمي لتصميم -وإن كان بشكل بدائي- بقلم رصاص على ورقة بيضاء، وفكر فيه أكثر من مرة حتى تتأكد من أنه يعبر عن الرسالة التي تريد إيصالها إلى القارئ من خلال حزمة البيانات التي عملت على تحليلها.

كتابة الأكواد البرمجية

تخلصت الصحافة من مشكلة ندرة البيانات بفضل تطور وسائل التواصل الحديثة. (غيتي إميجيز)

هناك طريقة واحدة لمساعدة القراء على العثور على القصة الصحفية بداخل البيانات، وهي دمج التفاعل مع التصور البصري للبيانات، الأمر الذي يوسع نطاق عرض البيانات ويسهل للقارئ اختيار طريقه الخاص في فهمها وتحليلها. وكي تتمكن من توفير القصة الصحفية في صورة تفاعلية، ينبغي عليك مواجهة التحدي الأكبر وهو تعلم كتابة الأكواد البرمجية، أو على الأقل الإلمام بالمهارات الأساسية للبرمجة.

ولأن القصة الصحفية تُنشر وتُقرأ عبر جهاز الحاسوب، فعليك معرفة لغات البرمجة التي يعمل بها الحاسوب، فضلا عن أن الأكواد البرمجية حلت محل الصحفيين في الوقت الراهن، فقد استخدم العديد من غرف الأخبار العالمية أكوادا برمجية لتغطية فعاليات الدورة الأولمبية الأخيرة، فأصبح بوسع كود برمجي أن يؤدي الآن -دون أدنى تكلفة تُذكر- ما كان يفعله الصحفيون في السابق. وأخيرا، من المؤكد أن الصحافة تتخذ منحى جديدا في هذه الآونة، منحى لا يمكن إنكاره أو الحيد عنه، وإذا لم تتطور مهاراتنا لتتوافق مع هذا التطور الذي تشهده الصحافة ستفقد أعمالنا قيمتها أو لن تجد من يقرؤها، وقد لا نجد لنا متسعا في هذه المهنة، فالعمل الصحفي الآن بات يمثل التقاء عدد واسع من المجالات المتنوعة، والقدرة على الجمع بين هذه المهارات لسرد القصص بات ضرورة ملحة.. وإن كان في الحقيقة ما من أحد يمكنه أن يفعل كل ذلك، إلّا أن الحصول على الحد الأدنى من المعرفة بكافة هذه المهارات السابقة سيصنع دون شك فارقا في مسارك المهني، ومع الممارسة والتطبيق ستكتشف وستتعلم المزيد عن كل مهارة.

حاول أكثر من مرة، فبمجرد أن تبدأ لن تجد مفرا من استكمال الطريق الذي بدأته، لأنك مع كل مهارة جديدة تكتسبها ستجد متعة في عملك، وستتمكن من سرد قصص صحفية مختلفة عن تلك القصص التقليدية التي كنت تعمل عليها من قبل، أو قد تجد أن ما كنت تستغرق أياما وأسابيع لإتمامه، أصبح بإمكانك إنجازه في ساعات بفضل واحدة من تلك المهارات السابقة.

ولتتعلم شيئا جديدا، عليك تكرار المحاولة. ولا تنس أن هناك عددا من الأدوات -الكثير منها مجاني- متاحة لاستخدامها لتعبئة الفراغات الناقصة من مهاراتك، مما يسهّل مهمّتك.

المسافة المضطربة بين الرأي والخبر

منتصر مرعي

مرت الصحافة العربية بظروف تاريخية كرَّست لصحافة الرأي لا صحافة الخبر والمعلومة.. العديد من رؤساء الصحف العربية نالوا شهرتهم من كتابة مقالات الرأي، لا من العمل الميداني.

في بداية العمل الصحفي تعلمنا أن نترك مسافة بين الرأي والخبر، وألا نخلط بين مواقفنا الشخصية والعمل المهني أثناء التغطية الصحفية، رغم أننا في ذات الوقت لسنا سذجا لنحلم بصحافة موضوعية بصورة مطلقة.

لكن حالتي الانقسام والاستقطاب الشديدتين جعلتا الكثير من الصحفيين ينزلقون إلى الزج بمواقفهم وآرائهم في عملهم الصحفي بصورة واضحة جدا تتجاوز كل المعايير، بل وممارسة التحريض والانتصار لتوجه سياسي ضد آخر، وفي بعض الأحيان تحولت المؤسسات الصحفية إلى طرف واضح ومعلن مع الثورة أو النظام في هذا البلد أو ذاك. لا يمكن لوم بعض الصحفيين الذين وقعوا خطأً في فخ الانحياز، لأنهم فقدوا بوصلتهم التحريرية في ضوء الاستقطاب الشديد الذي تختلط فيه الأمور، وتتلاشى أو تكاد معه المسافة بين الرأي والخبر.

من الطبيعي أن تضيق هذه المسافة أو تتسع، لأن كل صحفي عربي له تحيزاته وربما انتماءاته، لكن القدرة على التجرد وحفظ مسافة كافية تتفاوت في حالة الفوضى اليوم. سأعود إلى التاريخ القريب مرة أخرى في محاولة لفهم ممارسات الصحفيين في العالم العربي، فالصحافة هنا ما زالت ناشئة بكل المقاييس، ورغم أن العديد من الصحف بدأت في وقت مبكر من القرن التاسع عشر فإنها لم تعمر طويلا كالصحف الغربية، وأذكر على سبيل المثال صحيفتي واشنطن بوست وذي غارديان الحائزتين على جائزة البوليتزر للصحافة. في عام 1875 أسس الأخوان اللبنانيان بشار وسليم تقلا في مدينة الإسكندرية صحيفة الأهرام المعروفة، ولم تلبث أن تحولت الصحيفة الأسبوعية إلى صحيفة يومية وانتقلت إلى العاصمة العربية الأكبر.. القاهرة. عرف عن الصحيفة آنذاك رصانتها ودقتها في نقل الخبر، واعتمادها أسلوبا مختلفا في الكتابة عن السائد في زمانها، وكنا نشهد ولادة مدرسة صحفية عربية جديدة، لكن صحيفة الأهرام التي سلكت هذا الطريق في البدايات يتم تعريفها اليوم على أنها صحيفة قومية.

كان التطور الطبيعي يحتِّم في مهنة الصحافة إرساء دعائم المهنية، لكن التجربة العربية

معظم الصحف العربية تناطق باسم النظام أو الحزب الحاكم، وفي بعض الأحيان يمتلك الحزب الحاكم أكثر من صحيفة.

الأبرز تنتهي إلى صحيفة تختلط فيها الصحافة بالأيدولوجيا، لا سيما مع المد القومي في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وانتهاء بتمترسها اليوم في خندق المؤسسة الرسمية.. وينطبق على صحيفة الأهرام المقولة الدارجة «نجحت العملية ولكن توفي الجنين!». في الغرب استطاعت المؤسسات الصحفية رغم التحولات السياسية الكبرى كالحربين العالميتين الأولى والثانية، أن تضع تقاليد راسخة في العمل الصحفي وأن تؤسس لمدارس عالمية، في حين كان العديد من الصحف في العالم العربي أقرب إلى السلطة أو غير بعيدة عن سطوتها، وظلت معظم الصحف في وقت مبكر، ثم وسائل الإعلام المختلفة كالراديو والتلفزيون في وقت لاحق، أسيرة مراكز القوى: المال والسياسة.

ولو ألقينا نظرة سريعة على المشهد الصحفي في العالم العربي اليوم لأدركنا أن المؤسسات الصحفية تتبع إما نظاما سياسيا ما، أو رجل أعمال ما، أو الاثنين معا.. ومعظم الصحف -وهذا ليس سرا- ناطق باسم النظام أو الحزب الحاكم، وفي بعض الأحيان يمتلك الحزب الحاكم أكثر من صحيفة، كما هو الحال في سوريا على سبيل المثال.

والأنظمة العربية التي أدركت أنه لا يمكنها الاستمرار في خداع الجمهور، موّلت من بعيد صحفا وقنوات تلفزيونية وإذاعات تعبر عنها وتحشد الرأي العام لصالح مواقفها.

بعض التجارب التي أفلتت من هذا الطوق هي الصحافة الحزبية، وبقدر ما كان يحاول هذا النوع من الصحافة التحرر من سطوة النظام الحاكم أو رجال الأعمال فإنه ظل أسير الأفكار الأيدولوجية والحزبية التي كانت غالبا ما تطبع العمل الصحفي بطابعها.. وكثير من الصحفيين البارزين في العالم العربي جاؤوا من خلفيات حزبية أو من الصحافة الحزبية، ولم يؤسس حتى اليوم في عالمنا العربي المنقسم والمضطرب صحافة مستقلة رغم وجود تجارب جيدة هنا وهناك، ولكنها غير ناضجة أو محدودة ومحاصرة.

إن الظروف التاريخية التي مرت بها الصحافة في العالم العربي جعلت السمة الأبرز هي صحافة الرأي لا صحافة الخبر والمعلومة والتحليل والبحث والاستقصاء.. العديد من رؤساء الصحف العربية نالوا شهرتهم من كتابة مقالات الرأي، لا من العمل الميداني ورواية القصص من أرض الواقع، أو من ممارسة الصحافة الاستقصائية في ظل استمرار الفساد السياسي والمالي وغياب الديمقراطية وانتهاك حقوق الإنسان ووجود السجون السرية.

كما أن القيود التي فرضتها الأنظمة السياسية على الصحافة في العالم العربي وإطلاقها يد الأجهزة الأمنية للتحكم فيها، وضعت العراقيل أمام تطور مهنة الصحافة، فعندما نعلم أن ثلاث دول عربية فقط هي الأردن واليمن وتونس تسمح قوانينها بحق الحصول على المعلومة، ندرك أنه من الأسهل على الصحفي كتابة رأيه والاستغراق في السرد بعيدا عن المعلومة والتحليل الرصين.. هذا على فرض أن هذه الدول الثلاث تسمح بالفعل بهذا الحق، غير أن الواقع يشير إلى عكس ذلك. هذه السمة البارزة للصحافة العربية صبغت القارئ أو المستمع أو المشاهد بما يتوافق مع أجندات الجهات الرسمية، ففي مصر -مثلا- يتابع المصريون باهتمام مقالات الرأي أو البرامج الحوارية لهذا الصحفي أو ذاك لتشكيل تصوراتهم ومواقفهم إزاء قضية ما بعيدا عن المعلومة والتحليل.. وينساق المشاهدون إلى الاستماع لتحليلات مبنية على نظريات المؤامرة تجعل من أوباما رئيسا لتنظيم الإخوان المسلمين، ومن الربيع العربي مؤامرة كونية.

في لبنان، الحال أفضل قليلا من حيث وجود صحافة مهنية، وتقاليد أرستها صحف كالنهار والسفير، رغم أنها كانت أيضا ضحية التجاذبات السياسية وتأثير رأس المال.

وفي الأردن الذي يقع على مسافة جغرافية متوسطة بين مصر ولبنان، يبقى الأمر فيه خليطا بين هذا وذاك. ومع أن مهمة الصحفي هي مراقبة السلطة، تغيب ثقافة المجتمع التي تراقبه وتحمله على الالتزام بالمهنية، وهكذا تضطرب المسافة بين الرأي والخبر.

ورغم ذلك كله تبقى المناطق العربية من أكثر المناطق الساخنة والخصبة للعمل الصحفي في ذات الوقت، وأعتقد أن الفرصة ما زالت مواتية لتأسيس صحافة حقيقية ومستقلة، تتعامل باهتمام مع المعلومة والاستقصاء، لا سيما مع انتشار المنصات الرقمية الأكثر تحررا.. وحينها سيتمكن الصحفي من العمل بمهنية بعيدا عن ضغوط الثقافة القائمة، ومراكز المال، والسياسة، والانقسام العميق، وسيتمكن في ذات الوقت من إعادة ضبط بوصلته التحريرية لتنحاز إلى الإنسان.

السمة البارزة للصحافة العربية صبغت القارئ أو المستمع أو المشاهد بما يتوافق مع أجندات الجهات الرسمية. (رويترز)

الإذاعات على قيد الحياة وصحافتها تموت

عبد المحسن القباني

تواجه مؤسسات صحفية تحديا في إنتاج محتوى مهمٍّ يتلهف عليه القراء. في المقابل تعيش الإذاعات التجارية وتحقق ربحية وجماهيرية جيّدتين، دون أن تستنزف نفسها في إنتاج عمل معلوماتي صحفي إذاعي.

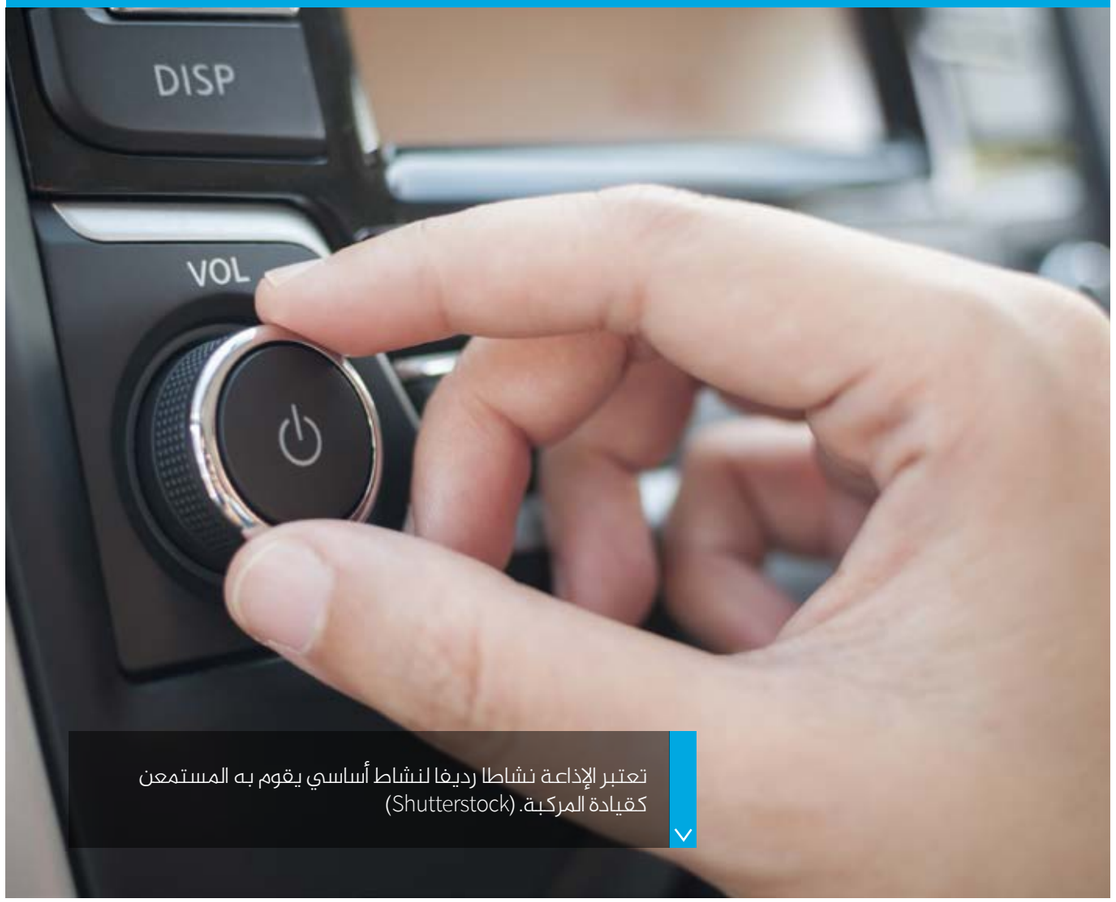

تعتبر الإذاعة نشاطا رديفا لنشاط أساسي يقوم به المستمعن كقيادة المركبة. (Shutterstock)

هل التفتم إلى هذه المفارقة؟

أقضِي أكثر من 45 ساعة شهريا في سيارتي متنقلا بين أحياء الرياض المترامية الأطراف. لهذا السبب نشأت لديّ عادة الاستماع إلى الإذاعات كرفيق لي في زحام العاصمة السعودية. تقدم تلك الإذاعات مزيجا من الأغاني العربية المعاصرة، وكثيرا من الحوارات السريعة مع المستمعين، وأصبح هذا تقليدا تعتنقه تلك المحطات، وبالكاد تجد علامة فارقة بينها.

قررتُ في نهاية المطاف أن يكون الاستماع من مواد الإنترنت عبر الأجهزة الذكية خيارا جديدا، نظرا لندرة وجود مواد رصينة تعمل على إنتاجها داخليا تلك المحطات على الرغم من عراقة وسيلة الراديو وتنوع فنونها. سألتُ نفسي مرارا: ما السبب في هذا التوجه؟ هل تظلمنا الإذاعات بهذا الإنتاج أم نحن نظلمها بتلك المطالبات؟ بمرور سريع على كثير من التجارب في الدول العربية والأجنبية، نجد أن الإذاعات السعودية لا تمثل حالة فريدة حتى لو قارناها بالدول ذات الجدل البرلماني أو ذات التعددية الحزبية، إذ إن التوجه السائد والمتزايد هو الإكثار من بث الأغاني والتقليل من إنتاج المحتوى الصحفي. وحينما تسأل المنخرطين في تسيير العمل الإذاعي تجد إجابة متشابهة وهي «إنتاج منخفض التكلفة ومربح».. ولكن كيف؟

يفسر توماس غيغر رئيس تحرير موقع «أحب الراديو» (Radio I Love it) ذلك بأن المستمع إلى وسيلة الراديو يتعامل مع هذه الوسيلة بطريقة خاملة (Passively)، إذ إنها نشاط رديف لنشاط أساسي يقوم به المستمع كقيادة المركبة أو القيام بأعمال منزلية، وهذا يجعله يفضل أن يستمع إلى مواد لا تتطلب تركيزا للاستنباط والتحليل، فالموسيقى حسب رأيه سهلة التلقي والتفاعل.

إضافة إلى ذلك يرى غيغر أن المعلنين يرغبون في أن يصلوا إلى الفئة العمرية الأصغر سنا ممن لم يحددوا بعدُ خياراتهم الشرائية من المنتجات، إذ إنهم سريعو التغيير في تجربة منتجات جديدة، خلافا للفئة العمرية الأكبر ممن لا يميلون نحو تغيير المنتجات التي تعودوا عليها. وهذا سبب إضافي يراه غيغر في تركيز الإذاعات على المحتوى الخفيف السريع تلبية للمعلنين وجمهورهم الشاب المستهدف.

أختلفُ كثيرا مع ربط الفئة العمرية الشابة بالمحتوى السريع والغنائي، فهذه الفئة -إلى جانب أنها لم تحدد خياراتها من المنتجات- هي فئة طلاب الجامعات، وهم في طور التشكل الفكري والثقافي، ويواجهون تحديات حياتية تتطلب الاستعداد لخوضها وإدراك ما يطرأ على مستوى الشؤون المحلية وتأثير ذلك على فرصهم في العمل والكسب. كما أنها فئة تبحث عن صوت لها لبث همومها وما يعتري هواجسها، مما يتطلب فهما آخر لدى ملاك الإذاعات في مخاطبة تلك الشريحة المستهدفة، بدلا من الإصرار العجيب على ربط المحتوى الراقص أو النقاش السطحي بالشباب.

لكن في المقابل، لو قامت الإذاعات بإنتاج محتوى صحفي وتغطيات حية بشكل يومي فإن هذا -منطقيا- إنتاج مكلف ماديا، إذ يتطلب زيادة طواقمها ليشمل الكثير من المحررين والصحفيين والمدققين لمتابعة القضايا والحصول على قصص جديدة. النماذج الموجودة دوليا لمثل تلك الإذاعات تعتمد على تمويل دافعي الضرائب ومساهمات المستمعين ودعم المؤسسات الخيرية، وهذه فرصة غير مواتية للإذاعات الخاصة التي قد نظلمها في مطالبات بتجويد محتواها.

كان للمستمعين في السعودية تجربة في خوض مؤسسة تجارية إطلاق إذاعة يطغى عليها النمط الإخباري والحواري، وتزامن ذلك مع فترة ما بعد الغزو الأميركي للعراق، وحققت صدى لافتا بين المتلقين. لكن لم تستمر تلك التجربة لسنوات طويلة، إذ تم تحويلها لتكون إذاعة غنائية موسيقية ذات برامج منوعة. هناك من يؤكد أن وسطاء الإعلان والمعلنين استطاعوا تغيير مسار الإذاعة لجذب الجمهور الأصغر ممن لا يعيرون الأحداث اهتماما كبيرا، مشيرين إلى أن النمط السابق لم يجذب الإيرادات المادية الكافية.. لذلك تم التغيير.

هناك من يرى أن الإذاعات الحوارية (Talk) في كثير من دول العالم تنطلق غالبا من «منطلقات يسارية»، وهي منطلقات لا يفضلها السياسيون، ولذلك ترتبط مصالح رجال الأعمال (ملاك المحطات والشركات المعلنة) بمصالح السياسيين من خلال تنميط الإذاعات بالنمط الموسيقي البعيد عن جو بث الانتقاد والشكوى لأداء رجالات السياسة ومؤسساتهم.

باختصار.. صحافة الراديو تواجه مستمعا خاملا وتقاطعات مصالح بين السياسي والتجاري.

«ليلة طيبة وحظا سعيدا» للصحفيين

منى حوا

في واحدة من أكثر الفترات قلقا في تاريخ الولايات المتحدة المعاصر (بعد أحداث 11 سبتمبر/أيلول 2001 والحرب على العراق)، عرض فيلم «ليلة طيبة وحظا سعيدا» للمخرج جورج كلوني الذي قام بالتمثيل فيه إلى جانب كتابة نصه مع غرانت هيسلوف. يروي هذا الفيلم قصة صراع الصحفي إدوارد مورو مع جوزيف مكارثي، أشرس عضو يميني في الكونغرس الأميركي في الفترة ما بين عامي 1947 و1957، وهو الذي قاد حملات واسعة للتخلص من خصومه السياسيين فراح يتهمهم بموالاة الشيوعية. كان من أبرز ضحايا هذه السياسة المكارثية جمهور واسع من الصحفيين والكتاب والإعلاميين والمثقفين. يمكن القول إن الفيلم -مع أنه في ظاهره كان سيرة ذاتية- قد فتح أحد أهم الملفات الشائكة في الصحافة.. وهو علاقة الإعلام بالسلطة.

مكارثي الذي جاء في طليعة المحافظين مطلع خمسينيات القرن الماضي، وجد بيئة خصبة لتحقيق طموحاته الشخصية إبان الحرب الباردة. فالظروف السياسية المحيطة بالولايات المتحدة مع تفشّي حالة «الرعب الأحمر» من تمدد الاتحاد السوفياتي، أو التخوّف من ضربات نووية في بلد لم يتعافَ بعدُ من تبعات «الكساد الكبير»، شكّل كل ذلك حاضنة لتحقيق المآرب السياسية، حيث أصبح مكارثي المُخلّص المنتظر من شرّ الشيوعيين وأفعالهم، مما أكسبه تعاطفا شعبيا واسعا، ودعما سلطويا نافذا ضرب به كل أعدائه وحاصر به جلّ الحريات، خاصة الصحفية منها.

اعتمد مكارثي في سياسته المقيدة للصحافة على صناعة الرعب وتزوير الحقائق والتشهير بالمعارضين وشيطنة كل الآراء المناهضة له تحت تهمة «معاداة أميركا» والتواطؤ مع الاتحاد السوفياتي. وتعاظمت الملاحقات الأمنية للجنة مكارثي حتى سميت تلك الحقبة باسمه

لقطة من فيلم «ليلة طيبة وحظا سعيدا» - إنتاج غرانت هيسلوف.

(المكارثية)، ومن هنا أضيف هذا المصطلح إلى قاموس السياسة والإعلام لتوصيف أي عمل يقوم به شخص ما أو جهة بعينها لترهيب الآخرين ثقافيا أو ملاحقة من يعتنق فكرا مناوئا للسلطة.. أفعال من شأنها اغتيال الخصوم السياسيين معنويا. ومن أبرز ضحايا المكارثية آنذاك الكتاب الصحفيون والمثقفون من أمثال الممثل والمخرج شارلي شابلن، والموسيقار السينمائي ألمر برنشتاين، وعالم الفيزياء ألبرت آينشتاين، والروائي هوارد فاست، وغيرهم.

الصحافة المناهضة للمكارثية موضوع فيلم «ليلة طيبة وحظا سعيدا». إدوارد مورو صحفي بارع حاول استئصال السرطان المتفشي في كبد الصحافة بسبب السياسات التضليلية التي انتهجت آنذاك، خاطر مع مجموعة من الصحفيين المحترفين بمستقبلهم المهني لمواجهة الاستبداد المكارثي، إذ أقدم مورو ومن معه بعرض خبر لاذع ينتقد القائمة السوداء التي فرضها مكارثي على المواطنين الأميركيين. وقد اعتبرت خطوة مورو هجوما غير مسبوق، حتى إن رئيس محطة «سي.بي.أس» آنذاك وليام بالي أخبره بوضوح بأن «عملك بالأساس هو قراءة الأخبار، وليس من شأنك صناعتها»، إلا أن مورو بحسّه الصحفي ووعيه الكبير كان يؤمن بدور أكبر يحتم عليه الحراك في حال تلمس الخطأ. من هنا بدأت ملحمة الصراع بين الصحفي والسلطة. الفيلم الذي عرض باللونين الأبيض والأسود سيعيدك إلى فترة الخمسينيات مباشرة، لكنه لن يدعك تفلت دون عقد مقارنة مع واقع الصحافة اليوم، وما آلت إليه في الإعلام الأميركي أو في إعلام المنطقة العربية، خاصة في الفترات الحرجة التي صاحبت موسم الهجرة إلى الثورات.

«نحن الآن أثرياء مرتاحون وراضون، ولكن لدينا حساسية ضد المعلومة غير السارة أو المقلقة.. إعلامنا الجماهيري الاستهلاكي يستغل هذا بشكل رئيسي لصرف انتباهنا وتضليلنا وتسليتنا وعزلنا.. إن التلفاز وأولئك الذين يمولونه ويشاهدونه ويعملون فيه، سيرون الحقيقة مختلفة كليا بعد فوات الأوان». بدأ الفيلم بهذه الكلمات الحاسمة التي غلب عليها الهدوء على لسان مورو في حفل تكريم له نهاية العام 1958 بعد معركته الطويلة مع جوزيف مكارثي.

يقول «نحن لسنا منحدرين من سلالة رجال جبناء خائفين، خائفين من الكتابة، خائفين من المشاركة، خائفين من الكلام ومن الدفاع عن القضايا التي آمنوا بها.. لم يعد هناك مجال للسكوت». كأن مورو بخطابه يلقي وصية المقاتل فيما اعتقد أنه الدور الذي يجب على الصحافة تأديته، سلطة تكشف الحقائق أمام زيف الأكاذيب المدمرة.

اختفى ذكر السيناتور اليميني، لكن المكارثية لم تغب.. يمكننا تلمس تنامي هذه الظاهرة من خلال نتائجها المنعكسة على أرض الواقع، خاصة مع تصاعد اليمين لدى المحافظين الجدد في ظلّ فراغ سياسي ملموس، ورواج واسع لنزعات التطرف المتعاظمة مع موجات الاحتراب الممتدة في مختلف أنحاء العالم.

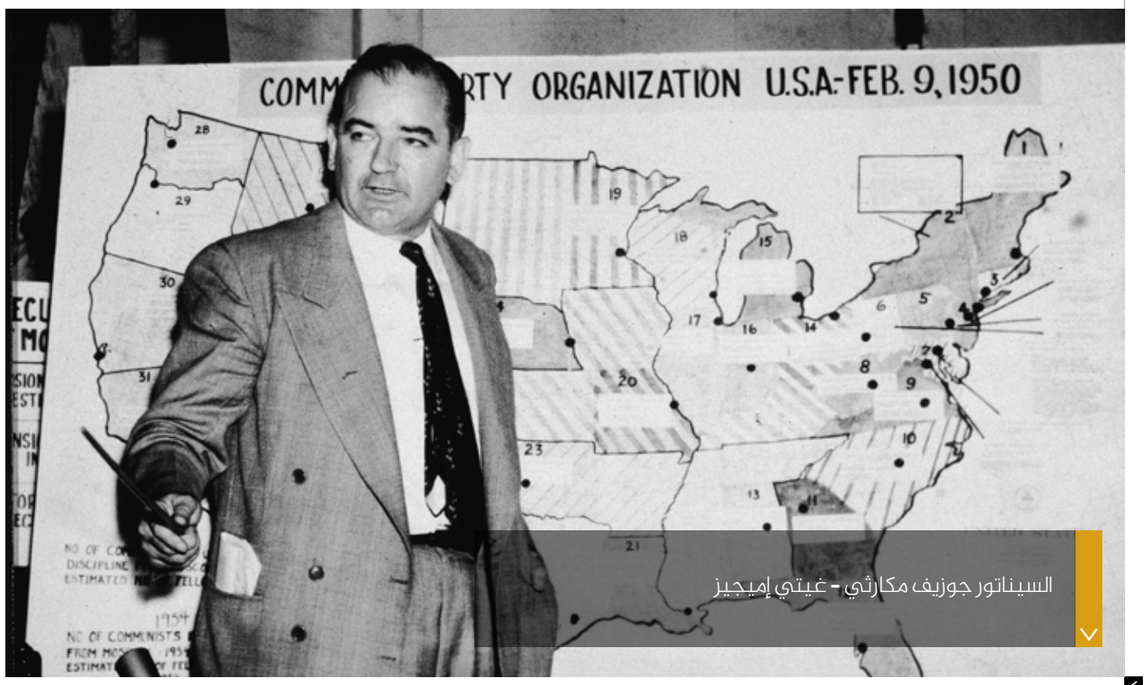

السيناتور جوزيف مكارثي - غيتي إميجيز

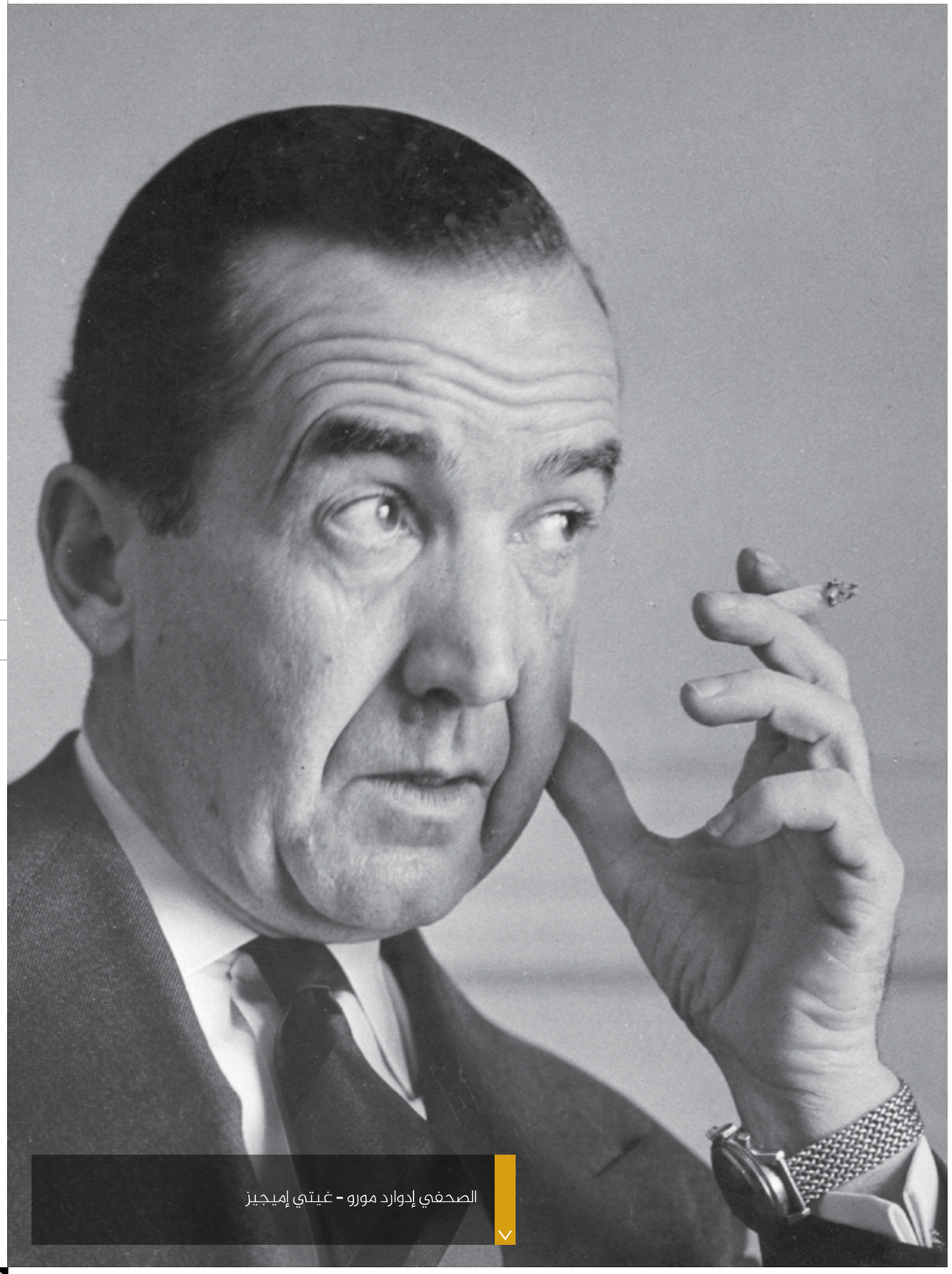
الصحفي إدوارد مورو - غيتي إميجيز

هندسة العنوان في البناء الصحفي

إسماعيل عزام

يشكل العنوان الصحفي بطاقة تعريف مصغرة للمادة الصحفية. (غيتي إميجين)

أول ما يلتقي به الصحفي قراء جريدته هو العنوان، فإذا استثنينا المواد المختصرة التي يتم تجميعها في ركن معين من الجرائد تحت اسم لا يتغير، فكل المواد التي تنتجها الصحف تحتاج عناوين، بل أضحت هذه الأخيرة ضرورة قصوى في عصر الصحافة الرقمية، إذ تحتاج كل مادة عنوانا حتى يتم تمييز رابطها عن آلاف الروابط الأخرى التي تدور في الفضاء الإلكتروني.

وكثيرة هي المحاولات التي تبتغي تعريف العنوان الصحفي، غير أنه يمكن القول -وانطلاقا من غالبية المحاولات الأكاديمية والمهنية- إن العنوان الصحفي يشكّل بطاقة تعريف مصغرة للمادة الصحفية. وبتعبير آخر، فالعنوان يعرّف مضمون المادة الصحفية وزاوية معالجتها ونوعيتها حتى يُفردها عن بقية المواد الأخرى، وهو أساسا يهدف إلى الإخبار في الأجناس الخبرية، وجذب انتباه القارئ في كافة الأجناس الصحفية. ومن خلال العنوان، يمكن أن نعرف الخط التحريري للمؤسسة الإعلامية، كما يمكن أن نستشف مدى مهنيتها.

وكحال المواد الصحفية، هناك عناوين رديئة وأخرى جيدة، وعموما فإن العنوان الرديء يقتل المادة الصحفية وإن كانت جيدة، بينما لا يتيح العنوان الجيد إنقاذ المادة الرديئة. بل إن وضع عنوان ناجح لمادة غير ناجحة، يؤكد قصور المهنية عند الجريدة، ممّا يسبّب خللا في الممارسة الصحفية، لذلك يبقى الحرص على المهنية في العنوان ومضمون المادة من أدوات نجاح الصحفي في بلوغ مقاصده، وبالتالي نيله احترام القارئ وتقديره.

وتبقى سمات العنوان الجيد متعددة، ويرى أستاذ الصحافة المغربي عبد الوهاب الرامي أن العنوان الجيد يجب أن يكون حاملا للجديد وراهنا على مستوى الرأي والخبر، وأن يكون دقيقا ومتضمنا لمعلومات أو أخبار بما يُجنّب العناوين الفضفاضة والشاملة، وأن يكون وفيا للمقال سواء لمضمونه أو لجنسه، وأن يكون سهل الإدراك وبسيطا ومفهوما، وأن يحترم ضرورة أن يكون قريبا من اهتمامات من يتوجه إليهم (ما يعرف بقانون القرب)، زيادة على أن يكون حيويا عبر توظيف الاختزال والأسلوب المباشر وتجنب اللعب بالألفاظ. ويمكن أن نضيف كذلك أن يكون موضوعيا ومتزنا، وأن يحترم أقصى شروط السلامة اللغوية.

وللتركيز على سمة الوفاء للمقال، فالصحفي المغربي خالد بنشريف يشير في بحث له إلى أن العلاقة بين مضمون المقال والعنوان تتحدد على ثلاثة أقسام: الأول هو العلاقة الجزئية، وفيها يُحيل المحرّر إلى جزئية وردت في المقال ويركز عليها. وهناك العلاقة الكلية، وفيها يَختزل العنوانُ النصَّ بناء ودلالة بشكل كامل. وهناك علاقة إيحائية وفيها تُترك للقارئ مهمة استنباط المعنى الذي يرتبط بالنص معتمدا على خلفياته. ويمكن القول إن العلاقة الكلية يمكن أن تُحيل إلى مضمون النص دون اختزاله كما هو الحال في العناوين الاستفهامية وعناوين الاستطلاعات «الريبورتاجات»، بينما يمكن الإشارة إلى أن العلاقة الإيحائية تظهر أكثر في بعض أجناس الرأي، خاصة العمود الصحفي.

هفوات مشتركة بين الصحافة الرقمية والمطبوعة

هناك أخطاء مشتركة بين العناوين الصحفية بصنفيها الرقمي والمطبوع، ويعود ذلك أساسًا إلى ضعف الإلمام بالقواعد

أول ما يلتقي به الصحفي قراء جريدته هو العنوان الذي يشكّل بطاقة تعريف مصغرة للمادة الصحفية. (غيتي إميجيز)

الصحفية أو التسرع في الإنجاز أو عدم إيلاء العنوان ما يستحقه من عناية أو عدم اهتمام المؤسسة الصحفية بثقافة العنونة، وهذا النوع من الأخطاء يبقى بنيويًا في الصحافة العربية التي تعاني من مشاكل كثيرة جعلتها تتخلّف عن الصحافة العالمية، لا سيما أن المحرّر كثيرًا ما يُترك لوحده أمام إكراه وضع عنوان مناسب دون تأطير من رئيس أو سكرتير التحرير، ونجد أحيانا أنه رغم تدخلهما في الصياغة فإن العنوان يبقى قاصرًا، خاصة عندما لا يدقق في المعلومات التي حملتها المادة.

ومن هذه الأخطاء خلط عناوين المواد الخبرية بالرأي أو أدلجتها أو تضمينها أحكاما قيمية ووضع عناوين طويلة لمواد إخبارية قصيرة، والسقوط في الإثارة بقصد التشويق، وتضمين العنوان الكثير من المعطيات، واستخدام أدوات النفي، وكتابة عناوين غير متجانسة مع نوعية أو جنس المادة، ووضع مفردات تحمل التباسا في المعنى، وإغفال المصدر في حال معطيات لم يتم التأكد من دقتها، والوقوع في الحشو والإطناب، فضلا عن أخطاء إملائية وتعبيرية أو صياغة العنوان صياغة ركيكة.

نقائص منتشرة في عناوين المواقع الإخبارية

• **عدم الوفاء لمضمون المقال**

يرى المتتبع للصحافة الرقمية، دون أن تكون لديه بالضرورة ثقافة صحفية قوية، أنها تزخر بالنقائص الكثيرة على مستوى العناوين الصحفية، فعوض أن تقرّب هذه الأخيرة القارئ من مضمون المادة، تجعله ينفر منها وأحيانا يندم على نقره على الرابط، إذ تمارس الكثير من المؤسسات نوعا من الاحتيال على

القارئ، فهو يقرأ في العنوان معلومة معيّنة أو يدفعه إلى تكوين فكرة ما، وعندما يقرأ المادة يجدها غير وفية أبدا للعنوان. وهذه الظاهرة السلبية انتشرت بشكل واضح مؤخرا، إذ ترغب بعض المواقع في جلب الزوار بأي وسيلة كانت، حتى لو اقتضى الحال ممارسة الخداع، وهو ما ينتفي تماما مع وظائف الصحافة.

ويمكن القول إن سمة عدم الوفاء لمضمون المقال هي الغالبة في خرق قواعد كتابة العنوان في الصحافة الرقمية، وينقسم هذا الخداع إلى شكلين: الأول ذكر معلومة غير صحيحة في العنوان وتصحيحها في مضمون المقال، ومن ذلك كتابة ما يشير إلى وفاة فلان، وعندما تنقر على المادة تجد أن الوفاة مجرد إشاعة. أما الشكل الثاني فهو المبالغة في العنوان، إذ يتحوّل التشويق إلى إثارة أو تهويل، ومن ذلك مثال: «عاجل.. مجلس الأمن يصفع الدولة الفلانية»، فعندما تنقر تجد أن لا شيء في المادة يستحق كلمة الصفع، أو تجد نعوتا غير مطابقة لمضمون المادة من قبيل: خطير ومأساة ومجزرة وصدام وفضيحة.. إلخ.

• غلبة العناوين التقديمية

ظاهرة أخرى انتشرت مع عناوين الصحافة الرقمية، هي ظاهرة العناوين التقديمية التي لا تحمل أي معلومة، وهي ظاهرة ترغب في حث القارئ على الدخول إلى المواد الإخبارية، ومن ذلك عناوين: «هذا ما قررته المحكمة في قضية فلان»، و«لهذا السبب لم ينعقد اجتماع مجلس كذا».

والواضح أن هذه العناوين تخرق مبدأ ضرورة تضمين عنوان المادة الخبرية المعلومة الأساسية، كما أن هذه الظاهرة تتجنى على حق القارئ في معرفة أهم ما في المادة عبر عنوانها، فالقارئ يختار قراءة المادة انطلاقا من أهميتها بالنسبة إليه، ولا يقرأ إلا عندما يخلق له العنوان الفضول، أما عندما تجبره المادة على النقر عليها باتباع تحريض هذه العناوين التقديمية ثم يكتشف أن المادة غير مهمة، كأن يقرأ أن ما قررته المحكمة في القضية السابقة هو التأجيل، فحينئذ يحس أنه كان ضحية عنوان مضلل.

غير أنه وجب الاستدراك بأن بعض العناوين في الصحافة الرقمية تحتّم فعلا أن تكون تقديمية، خاصة عندما يتعلق الأمر بمقال إخباري يتضمن الكثير من المعلومات على القدر ذاته من الأهمية، مما يجعل عملية تلخيصها جد صعبة، ومن ذلك مثلا خروج هيئة رسمية بعدة قرارات لا يستطيع الصحفي في بعض المنابر أن يختار الأهم من بينها، أو إصدار تقرير يحمل الكثير من المعلومات. وأحيانا، يضع الصحفي عنوانا مشابها لتصريحات شخصية معينة حتى يتيح للقراء متابعة كل ما جاء في التصريح بدل أن ينتقي الأهم.

• التقصير الشديد للعنوان

صحيح أن الاختزال يعد من سمات العنوان الصحفي الجيد، لكن قدرة الجرائد المطبوعة على وضع عناوين ثنائية (عنوان رئيسي وآخر فوقه) خاصة عندما يتعلّق الأمر بالحوارات والتقارير الصحفية المعمقة والمقالات التحليلية والتحقيقات والريبورتاجات، يُتيح لها مساحة أكبر توفّي تطلعات المحرر. بينما في الصحافة الرقمية، لا تتوّفر في الغالب إمكانية العناوين الثنائية من سطرين، لا سيما أن الجريدة ملزمة بعنوان واحد يظهر عند مشاركة الرابط في الشبكات الاجتماعية أو لأرشفته في محركات البحث. وحتى لو استدعت الضرورة عنوانا ثنائيا، فالمحرّر يكتبه في سطر واحد. لذلك تجنح المواقع الإلكترونية نحو الاختزال في العنونة، مع ما يستدعيه ذلك من حرص شديد على اتساق العنوان مع النص، بيد أن هذا الاختزال الشديد كثيرا ما يتحول إلى تقصير للعنوان ممّا يُضيّع تفاصيل مهمة، ومن ذلك عدم ذكر المصادر التي تُنسب إليها المعلومة أو التصريحات، أو عدم الإشارة إلى مكان الواقعة، أو تقديم عناوين شاملة (يسميها عبد الوهاب الرامي عناوين الإطار)، أو الاقتصار على جزء من السياق، ممّا يخلق الالتباس ولا يتناسب مع الموضوعية المطلوبة.

السبيل إلى عناوين رقمية جيّدة

من الصعب أن ندعي امتلاك وصفة سحرية لعناوين صحفية قوية في الصحافة الرقمية، فالثابت أن اكتساب مهارة العنونة الجيدة يأتي مع الخبرة المهنية، ولا يمكن لمجرد قواعد مكتوبة أن تمنح لأي كان إمكانية النجاح في تحدي العنوان القوي. ويتعزز ذلك مع حقيقة أن الصحافة الرقمية لا تزال تعيش مراحلها الأولى بالنظر إلى حداثتها النسبية، لذلك خلت الكثير من مؤلفات الصحافة حول العنوان من الإحاطة بمعايير العنوان الرقمي الناجح.

وزيادة على معايير العنونة الناجحة التي ذكرها الرامي أعلاه، وتنطبق كذلك على العنوان الرقمي، يمكن أن نضيف خمسة معايير لجعل هذا العنوان أكثر قوة:

1. تطوير الملكات الصحفية: يمكن القول إن تطوير ثقافة العنونة الصحفية ينطلق أساسا من الإلمام بقواعد الكتابة الصحفية وأخلاقياتها، فاستيعاب هذه القواعد والأخلاقيات ينعكس إيجابيا على طريقة تحرير العناوين. ومرد ذلك أن هذه الأخيرة تعدّ جزءا من العملية الصحفية التي تبدأ من تجميع المعلومات ثم تحريرها وبعدها إيصالها إلى المتلقي، والصحفي الذي يطوّر إمكانياته المهنية تصير قابليته لصياغة عناوين جيدة أمرا يسيرا، لأنه ركز على الأساس، أي الزاد المهني الرصين، وبعدها يمكنه أن يركز أكثر على متطلبات الوسيط الإلكتروني.

2. التمرّن على الاختزال الشديد، وذلك عبر حذف كثرة أدوات الربط والكلمات المكرّرة، ووضع عنوان تركيبي في حالة وجود تصريحات من مصادر متعارضة داخل المادة، عوض أن يتضمن العنوان جزءا من كلام كل مصدر. ويمكن الاعتماد على ما تقوله الصورة الرئيسية لتقليل حجم العنوان، ومن ذلك الاكتفاء بلقب الشخصية المحاوَرة ووضع صورتها بدل كتابة اسمها الكامل وصفتها في العنوان، كما يمكن الاستعانة بأول جملة من المادة لذكر تفاصيل تعطي للعنوان دلالة أكبر، فعند مشاركة المواد في الشبكات الاجتماعية، يمكن للمتلقي أن يقرأ أول جملة من المواد دون النقر عليها، ممّا يتيح فهما أكبر لطبيعة الموضوع قبل النقر عليه.

3. استخدام الكلمات المفاتيح: العنوان يستمر مصاحبا للمادة الصحفية في محركات البحث، ويمكنه أن يتحوّل إلى مرجع لمعلومة يبحث عنها الناس في هذه المحركات، لذلك من الأفضل استخدام كلمات مفاتيح قوية تعرفها محركات البحث، خاصة أسماء الشخصيات والأماكن والمؤسسات.

4. استخدام الأرقام: تفضل محركات البحث العناوين التي تتوفر على أرقام تختزل معلومات كثيرة، من ذلك مثلا: «خمسة أفلام حققت أعلى إيرادات لهذا العام» أو «عشرة مؤشرات تربط مورينيو بمانشستر يونايتد»، صحيح أن هذه المواد ليست إخبارية، وكثيرا ما ترتبط بمجال الترفيه، لكنها تجذب القارئ وتمكّنه من توسيع معارفه، ويكون أفضل لو ارتبطت هذه الأرقام بكلمات من قبيل أفضل، أقوى، أكثر، لكن شريطة أن يرتبط هذا التقييم بمصادر لها مصداقية عوض أن تدخل في الإثارة المجانية.

5. تحديث معطيات العنوان: خلافا للعنوان في الجريدة المطبوعة، على الصحفي العامل في جريدة رقمية ألا يجد حرجا من تحديث معطيات العنوان في حال وقوع أي جديد، لا سيما عند تغطية الأحداث المتجددة، فمثلا عند تغطية عدد ضحايا هجوم ما، لا يصح الإبقاء على الرقم القديم عند ورود رقم جديد، فذلك يؤثر على مصداقية المؤسسة عند إيجاد القارئ للرابط عبر محركات البحث، حتى لو نشرت المؤسسة مادة جديدة تتوفر على الأرقام الصحيحة.

ختامًا، يبقى من الضروري التأكيد أن جنوح بعض المؤسسات الصحفية عن قصد إلى ارتكاب إخلال بقواعد كتابة العنوان، يعود إلى رغبتها في تحقيق توازن مالي، بما أن الصحافة الرقمية تبقى مجانية في غالبيتها، وبالتالي تعتمد على عدد الزيارات لجلب المعلنين، غير أن الإصرار على جذب القراء بأساليب غير احترافية يضرّ بالمؤسسة ويخدش صورتها لدى القراء.

وعموما، فعلى المواقع والصحف أن تتفهم حقيقة تاريخية، أن نسبة القراء الذين يكتفون بقراءة العنوان كانت وستبقى أكبر من نسبة من يقرؤون المادة، فحتى عندما يشتري القارئ الجريدة المطبوعة ويكون لديه متسع من الوقت لقراءة كل موادها، يتحاشى قراءة كل شيء ويعتمد على العنوان بوصلة لتحديد حاجياته، ومتى اختلت هذه البوصلة، فالعلاقة بين القارئ والصحافة ستتأثر، وسيتحول عنوان غير مهني إلى رصاصة جديدة تنخر جسد الصحافة الذي يعاني كثيرا من الثقوب.

أنا وآزاد ومعركة الأفكار المسبقة

عبد القادر فايز

كانت المرة الأولى التي أركب فيها طائرة، ولم أكن أعرف ما الذي سأفعله بالضبط حين تهبط في مطار مهر آباد الدولي بالعاصمة الإيرانية طهران.. سرحت بي أفكاري المسبقة فوجدت نفسي أذهب إلى مكان لا يشبهني في شيء، فلم تكن إيران يوما على خارطة خياراتي شبه المعدومة.

في سن ما قبل العشرينات بعام فقط، كنت شابا يتبنى اليسار أيدولوجيا ومنهج حياة.. شابا ينتمي إلى المعرفة أولا ويفضل الحديث عن أخطاء وخطايا الأرض لا عن غيبيات وروحانيات السماء. باختصار كنت على نقيض مباشر وحاد مع المكان الذاهب إليه. هكذا قادتني أفكاري المسبقة إلى الاستنفار لخوض ما أسميته يومها مغامرة مجنونة.

لم أكن أعرف أني سأستقر في طهران، وأن المدينة ستعجبني وسأصبح فيها صحفيا عربيا متخصصا بشؤونها، وأني سأخترق تاريخ هذا البلد الجدلي ثقافيا وحضاريا وسياسيا ودينيا واجتماعيا، والأهم أني سأخوض تجربة الأفكار المسبقة بأقسى صورها وأكثرها عنصرية تجاه قوميتي وتاريخي وحضارتي، وأني سأجلس يوما -كما أفعل الآن- لكتابة هذه التجربة الصحفية التي تحمل من التناقض الكثير، مما يجعلها إحدى أهم تجاربي كصحفي عربي مقيم في إيران.

كنت قد تخرجت حديثا من الجامعة لأحمل شهادة في الصحافة والإعلام، واعتدت التردد عليها للتجول في مكتبتها وحضور محاضرات غير ملزمة لأحد مستشاري الرئيس محمد خاتمي يومها حول حوار الحضارات وتأثيرها في السياسات الدولية والإقليمية لإيران. وفي الجلسة الأولى لهذه المحاضرات، بدأ المستشار الرئاسي بالتعرف

نهر زاينده أو «زاينده روود» الذي تطل عليه مدينة أصفهان يقطعه جسر «سي أو سه بل». تصوير خورخي فرناندس (غيتي أميجيز).

إلي دار بيننا هذا الحوار:

أهلا.. إذا أنت لست إيرانيا يا عبد القادر.
- كلا لست إيرانيا.. أنا فلسطيني الجنسية يا دكتور.
- لماذا اخترت إيران لدراسة الصحافة ؟

- صحيح أني من اختار الصحافة، لكني لم أختر إيران بل كانت أحد خياراتي الإجبارية التي تصالحت معها وألفتها وألفتني.

فجأة ودون أي مقدمات، دوى صوت في القاعة بنبرة لغمت المحاضرة بالكامل:
- من سيستقبل عربيا فلسطينيا للدراسة مجانا دون مقابل غير إيران؟.. للأسف هذه هي حالنا يا دكتور.

كان ذلك شابا يدعى آزاد (وتعني الكلمة في اللغة الفارسية: الحُرّ)، وكان كلامه قاسيا وعنصريا بشكل فج ومباشر، مما اضطر الدكتور للتدخل وإسكاته وتغيير الموضوع كليا. للحقيقة لم تزعجني كلمات آزاد ولم تستفزني، حتى إني لم أتفوه بكلمة واحدة. من باب الفضول فقط أدرت رأسي ونظرت إليه لأعرف من هو.. لم يزعجني آزاد لأني لم أقدم يوما نفسي على أني عربي أو فلسطيني أو مسلم أو سني، وهذا جعل معركة الأفكار المسبقة أسهل علي قليلا من زملاء لي كان أغلبهم من «الإسلاميين» الذين اصطدموا بالمجتمع الإيراني من جهتين: الأولى قومية لها علاقة بالعرب، والثانية مذهبية لها علاقة بثنائية السنة والشيعة والأحقية التاريخية بتمثيل الإسلام كدين.

قررت خوض التجربة لا لشيء إلا لأرى جدية وتماسك أفكارنا المسبقة كصحفيين بشكل خاص وكبشر بشكل عام، لهذا اقتربت أكثر من آزاد، خاصة حين علمت أنه صحفي مميز ومثقف له كتابات يستشهد بها طلاب الصحافة في الكلية الجامعية. كان آزاد يمثل الشق الأكثر سوءا في مساحة الأفكار المسبقة التي يمكن لها أن تشوش الفرد بشكل دائم، فقد كان سلبيا تجاه كل ما يخص العرب لغة وثقافة وأدبا وحضارة، وكان يسعى جاهدا للمجاهرة بذلك ويجتهد في تشويه هذه القومية بشكل مستفز ومتعمد.

في أول تماس لغوي غير مقصود مع آزاد حين مررت به في أحد ممرات الجامعة، نظرت إليه ودون تردد قلت له:
- هل ما زال كلب أصفهان يشرب الماء البارد؟
- ماذا تقصد يا عبد القادر؟
- ألم تسمع ما قاله الشاعر الفارسي الكبير أبو القاسم الفردوسي عن العرب يوما يا آزاد؟
عرب در بيابان آب ندارد وسك أصفهان آب سرد مى خورد
(العرب في الصحراء بلا ماء وكلب أصفهان يشرب الماء البارد)
كان آزاد من الصحفيين الشباب الذين يثقون بلغتهم وحضارتهم وثقافتهم وقوميتهم، فلم يتردد في الرد:
- نعم ما زال كذلك.
- إذًا دعنا نذهب سوية إلى أصفهان لنشرب الماء البارد هناك مع كلب الفردوسي، وفي الطريق سأحدثك عن الصحراء وجمالها وأسرارها، سأحدثك أيضا عن ذئب الفرزدق، فليس بالماء البارد وحده يحيا الإنسان يا صديقي.

كان آزاد يتجاوزني وعلى وجهه علامات دهشة، حين اقتربت منه وهمست قرب أذنه قائلا:
- بالمناسبة ألا تقرأ الصحف يا آزاد، فالحديث يتزايد عن جفاف نهر أصفهان حتى إن بعض التقارير تشير إلى أنه لم يعد موجودا.. يا لكلب الفردوسي المسكين.

كان آزاد صحفيا بلغة راقية في الكتابة، يعرف ويقدّر جيدا ما يسمعه.. هكذا بدأنا حربا باردة عنوانها الأفكار المسبقة عن بعضنا البعض.. لقد كانت حربا باردة جدا أسلحتها أدوات الصحافة، لكنها لم تكن قذرة.
في قادم الأيام سيرفع آزاد السقف ليهاجمني علانية في قوميتي وعروبتي وأمام الجميع.. لم أكن أرغب في منحه ما يريد، كأن يستفزني لأهاجم بدوري الفرس والحضارة الفارسية ليظهر هو أمام العامة كمن يدافع عن قوميته وبلاده وحضارته، الأمر الذي يعني الكثير في مجتمع كالمجتمع الإيراني، لهذا كنت أتجاهله جدا في العلن وأقترب منه جدا حين يكون وحده.

أحسَّ آزاد بذلك، لهذا ترك الباب مواربا كي أدخل ولو قليلا إلى مساحات عنصريته وأفكاره المسبقة عن العرب، جيران إيران التاريخيين وشركائهم في الحضارة والتاريخ والدين والجغرافيا والاقتصاد.

كان مفاجئا جدا ذلك الاتصال الهاتفي حين رد الشخص على الطرف الآخر من الخط:
- مرحبا عبد القادر.. معك آزاد.. ما رأيك في فنجان قهوة وبعض الحديث، أو لنقل فصلا جديدا من المجابهة الحضارية؟

لم أتردد في قبول دعوة آزاد حيث كنت سأراه للمرة الأولى خارج أسوار الجامعة وبدعوة منه أيضا.. ما إن انتهت المكالمة حتى شعرت بأن المعركة انتهت أيضا، وأن الحرب الباردة بيني وبين الأفكار المسبقة قد وضعت أوزارها، والأهم أني انتصرت في هذه المعركة كصحفي وإنسان، وأن كل ما تبقى هو عملية إخراج هذا النصر بطريقة لا تستفز آزاد، بل تجعل منه صديقا ولو بحذر.
دلفت إلى داخل المقهى الذي اختاره آزاد بعناية.. كان في جانب من المدينة يظهر مفاتن البلاد وحضارتها وتاريخها العريق، وكان مليئا بالصحفيين والسينمائيين والكتاب والشعراء وغيرهم ممن يسميهم البعض النخبة الثقافية، مع تحفظي على هذا المصطلح غير الدقيق. حين وقع نظري على آزاد، كان يجلس في ركن منزو قليلا، كمن قرر وقف كل العمليات الاستعراضية وفي يديه ديوان مترجم للشاعر العراقي مظفر النواب.. ألقيت عليه السلام ودون مصافحة جلست قبالته مباشرة عن عمد مسبق، متجاهلا سؤاله عن سبب قراءته لشعر النواب.

كان ذلك عام 2007 حين بدأ آزاد كلامه بسؤال ملغم لا يخرج إلا من صحفي متمرن ومتابع ويعرف أين يقف وماذا يقول:
- ما الذي يجري في غزة يا عبد القادر؟ لماذا يقتل الفلسطينيون بعضهم البعض؟ حماس تقتل الفتحاويين وفتح تقتل الحمساويين؟ ماذا بشأن عدوكم إسرائيل؟ ما الفائدة من أن نبقى ندعمكم وأنتم لا ترحمون بعضكم بعضا؟

للحقيقة أقول اليوم بأن سؤال آزاد هذا فاجأني ووضعني في وضع محرج كصحفي يشق طريقه في المهجر، وللأمانة أقول بأني لم أمتلك جوابا مقنعا يومها، وليس لدي جواب مقنع اليوم أيضا يفسر ما جرى، لكن وبشيء من الحيلة وسرعة البديهة التي لا أعرف من أين داهمتني حينها رددت:
- هو التاريخ يعيد نفسه يا آزاد لكن بشكل مختلف وأمام عدسات المصورين وعلى الهواء مباشرة.. ألم يقتل رستم سهراب في الأسطورة الفارسية في الشهنامه؟ ألم يفعل ذلك حين اندلعت الحرب، يومها قتل الأب ابنه من حيث لا يدري.. ولو كانت هناك فضائيات وقتها لبقي هذا الخبر عنوانا رئيسيا لأيام كما هو حال الفلسطينيين اليوم.. لسنا استثناء يا صديقي.

ابتسم آزاد وكانت هذه المرة الأولى التي أراه فيها مبتسما وهو يحدّق فيّ بعينين تخلوان تماما من أي تحدٍّ، وبصوت عادي جدا لا يبشر بمعركة جديدة قال:
- يا لك من أجنبي يا عبد القادر، تعرفنا جيدا وبشكل عميق أيضا.
- هي اللغة يا آزاد، منذ تعلمت الفارسية باتت تشكل جزءا لا بأس

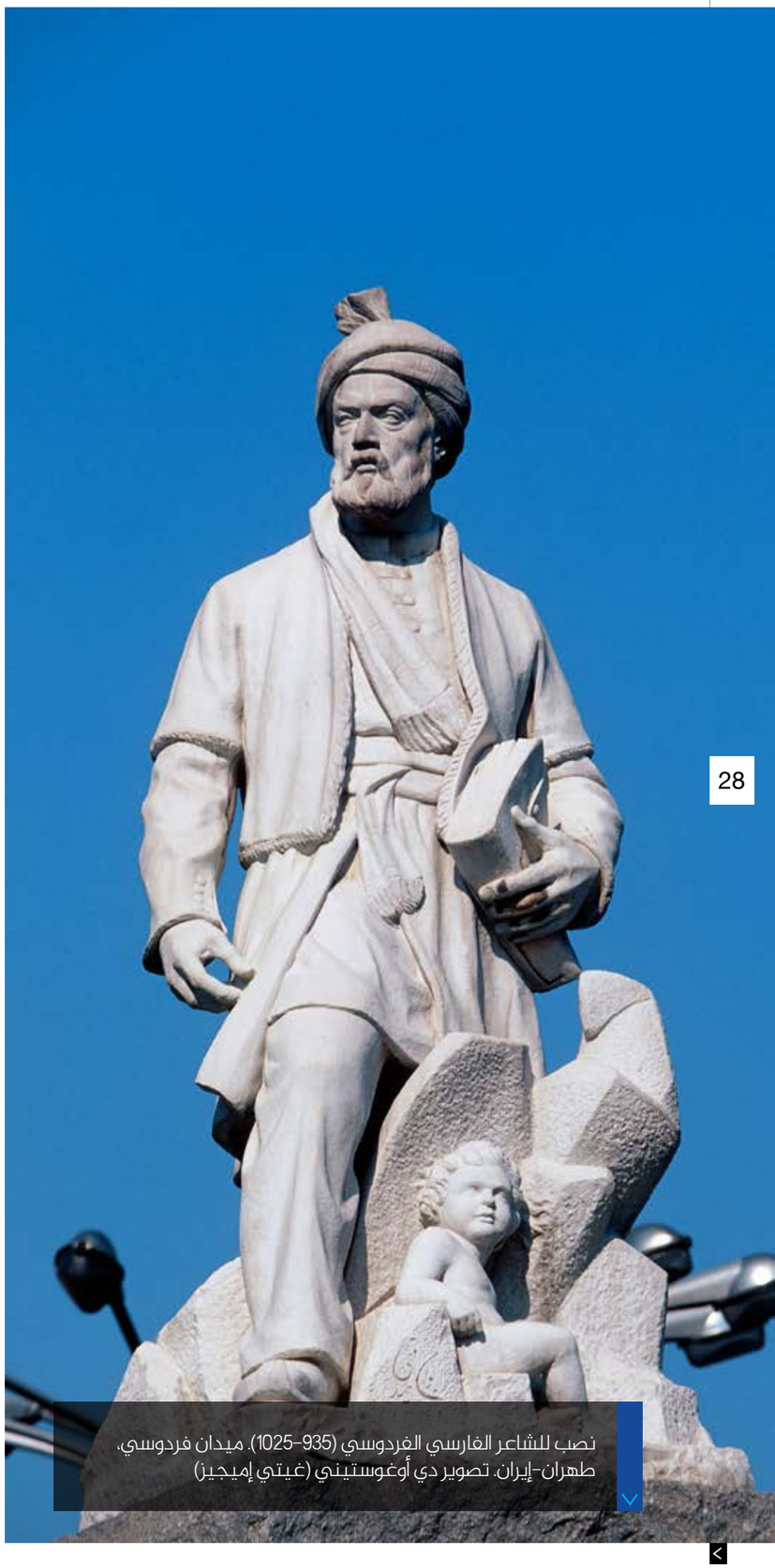

نصب للشاعر الفارسي الفردوسي (935–1025). ميدان فردوسي، طهران-إيران. تصوير دي أوغوستيني (غيتي إميجيز)

به من أحلامي ليلا. مُذّاك، وضعت كل أفكاري المسبقة جانبا وتعرفت إلى إيران كتجربة شخصية بالمعنيين المعرفي والتجريبي. وكمستغل لفرصة ربما لا تتكرر باغته قائلا:

– لماذا لا تفعل الشيء ذاته يا آزاد؟.. تتعلم اللغة العربية جيدا وتغدو قادرا على تقديم نماذج حقيقية لعنصريتك ودعم أفكارك السلبية عنا بأمثلة حية من تاريخنا كعرب، فنحن أمة لها أخطاء أيضا وبعضها كبير جدا، وسيحلو لك أن تتغزل بها أينما ذهبت.

– لماذا أتعلم اللغة العربية وأنا لا أحبها؟ وكيف سأتعلمها أصلا وأنا لا أشعر بحب تجاهها؟

– ولماذا لا تحبها يا آزاد؟ هذا موقف مسبق مبني على جهل، فأنت لا تعرفها أصلا حتى تكرهها أو تحبها، لم لا تجرب؟

– لا أحبها لأني أحب نقيضها (أي الفارسية)، خاصة أن العربية لوثت لغتنا بالكثير من المفردات! أحب الفارسية الأصيلة وأولئك الشعراء الكبار الذين أنصفوها.

– إذن أنت تحب الفردوسي وسعدي وحافظ الشيرازي والخيام وصائب والتبريزي.. (عن قصد عددت له عددا كبيرا من الشعراء الكبار والتاريخيين).

– نعم أحب هؤلاء طبعا وبدأت أحب معرفتك لهم أيضا.

– إذن اسمع يا آزاد ما قاله حافظ الشيرازي حين قرر أن يكتب شعرا جميلا:

ألا أيها الساقي أدر كأسا وناولها
كه عشق آسان نمود أول ولی
أفتاد مشكلها

كيف بإمكانك أن تحب الشطر الثاني فقط وتكره الشطر الأول من بيت الشعر هذا؟ أنت عالق فقط في حب الشطر الثاني ولديك أفكار مسبقة حول الشطر الأول، وتمارس كل أنواع السلبية لشيطنة لغة أراد لها الشيرازي أن تكون فاتحة لشعره.. لا أفهم كيف تحب الشيرازي وتكره شعره؟

لم يجب آزاد على كرة الأسئلة التي رميتها في وجهه، بل اكتفى بالنهوض.. ابتسم وهمَّ بالمغادرة قبل أن يدعوني لدفع الحساب.

تكررت الجلسات مع آزاد حتى باتت أسبوعية تقريبا، وباتت أكثر عمقا وأكثر عنصرية وتحديا وأكثر صراخا، وصاحبها غضب مني ومن آزاد حتى بات يعرض علي كتاباته العنصرية عن العرب التي كان ينشرها باسم مستعار في مواقع فارسية وصحف أغلبها نخبوية وتعتني بالنقد والتحليل أكثر منه بالأخبار اليومية.

في إحدى الجلسات كان آزاد أكثر هدوءا وأقل عنصرية وأكثر إصغاء، وبدأ يبدي إعجابه ببعض الكتاب العرب وبعض الشعراء وبعض الكتب التي كنت قد زوّدته بها ولم أكن أتوقع أنه سيقرؤها أصلا، كما أنه أسرّ لي يومها بأنه يفكر في زيارة دمشق وبيروت والقاهرة وأنه بدأ يفكر جديا في تعلم العربية كلغة فقط.

خلال عام تقريبا أثبت آزاد أنه قادر على التعلم بسرعة رهيبة وبشكل لم أره من قبل، ففي منتصف العام 2008 كان يتقن العربية بشكل جيد، وكنت أنا أستعد لمغادرة إيران نهائيا إلى دبي للعمل هناك في الشق الإخباري من تلفزيون دبي.. في أحد شوارع العاصمة وقف آزاد يحدثني بالعربية العامية قائلا: «عن جد عبد القادر كانت تجربة عاصفة وجميلة، أنا مسرور الآن لخوضها، اليوم أنا بحكي عربي بس انتبه هذا لا يعني أني أحب العرب، فللأمانة أنا أحب عبد القادر العربي والعربية كلغة فقط، أما العرب كعرق وحضارة فذلك شيء آخر».

قلت له: لا بأس يا آزاد فهذا يكفي.. يومها غادرت البلاد وأقمت في دبي وانقطع الاتصال معه إلا من سلام عابر بين حين وآخر دون الخوض في أية تفاصيل. في منتصف العام 2010 كنت أستعد للعودة إلى طهران للعمل مع شبكة الجزيرة كمراسل لها في إيران، يومها تواصلت مع آزاد وعرفت أنه في أستراليا وأنه يستعد لقضاء إجازته السنوية في طهران.. هكذا اتفقنا على اللقاء. حين رأيته قال لي ما لم أتوقع سماعه بتاتا، قال لي بعربية واضحة ولكنة رائعة:

– لقد غيرتُ رأيي يا صديقي، نعم أنا الآن أحب العربية لغة وحضارة وثقافة وأدبا أيضا، فأنا أقرأ لمحمود درويش ونازك الملائكة وبلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي وأنسي الحاج وأدونيس وغيرهم، وأسمع الطرب لأم كلثوم وأحب أغاني نانسي وإليسا وكاظم.. وعرّج على أسماء لا أعرفها ولم أسمع بها من قبل، كما قال لي بأنه يكتب في بعض الصحف العربية، ومد إلي بآخر مقالة كتبها.. مقالة مطبوعة عنوانها «صديقي العربي».

كنت فرحا بانتصار آزاد على عنصريته وأفكاره المسبقة عني وعن عروبتي، لكن ما لم أكن أعرفه هو أن سنوات عجافا كانت تستعد لإعلان حضورها.. سيكون أغلب العرب والإيرانيين خلالها على طرفي النقيض تماما في صراع سياسي استعملت فيه كل أدوات الحضارة والتاريخ والدين والثقافة والأدب لتشويه الآخر، والأهم: كم سيولد في طهران والعالم العربي من مئات من أمثال آزاد قبل أن ينتصروا على أفكارهم المسبقة؟

أخطر ما في الأفكار المسبقة أنها تعيد بناء التاريخ بسوداوية لا حدود لها، وتصنع الحاضر بأدوات الأيدولوجيا المقيتة، وتتوقع مستقبلا قائما على هاتين النقطتين. والأكثر خطورة أن يكون مصدر هذه الأفكار المسبقة الصحفيَّ نفسه، فهنا تنجح هذه الأفكار في ارتداء ثوب المعلومة وأقنعة الحقائق لتصبح مسلمات تحدد مفاصل العملية الإعلامية برمتها، فبدلا من أن تكون مهمة الصحافة والصحفيين تعديل هذه الأفكار وتصحيحها في ذهنية المجتمع وأفراده، تصبح الصحافة ووسائلها أكبر مروج لتلك الأفكار.

وهكذا نكون قد فخخنا ساحاتنا الإعلامية بألغام الأيدولوجيا وسممنا الجمهور بأفكار مضلّلة، وخلقنا مجتمعا يبحث عن واقع يطابق أفكاره المسبقة، لا عن أفكار تعبّر عن الواقع الحقيقي.

وقتها نكون قد خسرنا كصحفيين وخسرنا كمجتمع، والأهم أننا سنكون قد فشلنا في معركة الآخر.. الآخر الذي شوَّهْناه وشوَّهَنا.

مكتبة جامعة طهران بإيران. تصوير توماس كويهلر (غيتي إميجيز)

العالم العربي يدوِّن من جديد

صباح حمامو

في فترة ما بعد الربيع، عاد التعبير عن الرأي مرة أخرى إلى المساحات الافتراضية سواء عن طريق المدونات أو الصفحات الشخصية للمدونين على وسائل التواصل الاجتماعي لظروف سياسية معروفة.

ساسة بوست ونون بوست وهافينغتون بوست ومدونات الجزيرة مباشر ومدونات سكاي نيوز عربية وأخيرا مدونات الجزيرة.

ظهرت تلك المنصات على ساحة الإعلام العربي بصورة متتابعة لتؤكد على الدور البارز لمحتوى المدونات الإعلامي في فترة الثورة التقنية، ولتؤثر وتنقل الأفكار والمشاعر والقصص بعدما اندحرت مع مد طوفان وسائل التواصل الاجتماعي الذي بدأ مع ظهور الفيسبوك عام 2004 ثم تويتر عام 2006 ثم عشرات التطبيقات ومواقع التواصل الاجتماعي الأخرى.

عادت منصات التدوين لتضم الجميع.. الإعلامي اللامع وطالب الثانوي وربة المنزل والسياسي والأستاذ الجامعي.. لم يطرح السؤال أبدا: لماذا تراجعت مكانة المدونات في عصر السوشيال ميديا؟ لأنه من الطبيعي أن تأخذ وسيلة إعلامية جديدة من وسيلة أخرى، لكن السؤال الآن يطرح وبقوة: لماذا الآن بعد سنوات عديدة من الاختفاء، تعود المدونات لتحتل هذه المساحة في ساحات الإعلام؟

ربما يرجع هذا الإقبال في اللحظة الراهنة إلى عدة أسباب، منها:

1. ارتداد النشاط والتفاعل مرة أخرى إلى الساحات الافتراضية بعدما انتقل إلى الساحات الحقيقية:

في السنوات الأولى لإرهاصات الربيع العربي التي امتدت من بداية الألفية الثانية، شكلت المدونات منصات للتعبير الحر عن الرأي من أجل نشر الوعي حول قضايا المجتمع والحريات والانتهاكات. فحينما بدأ الحراك في تونس ومصر وسائر الدول العربية، كانت وسائل التواصل الاجتماعي التي استخدمها النشطاء والكتاب هي الساحة الأبرز التي طغت على المساحة التي كانت للمدونات، إلى جانب تحول هام في المعادلة، بعدما انتقلت الفرص المتاحة للتعبير عن الرأي من العوالم الافتراضية إلى الحقيقية في الشوارع والميادين ووسائل الإعلام، وأيضا المؤسسات الرسمية المعبرة عن الشعب. وكان النشطاء يستخدمون مصطلح «Download» للإشارة إلى أن الثورة قد تم تحميلها من العالم الافتراضي إلى العالم الحقيقي.

والآن في فترة ما بعد الربيع يبدو أن الأمر ارتد إلى المربع صفر، ليس فقط في مساحات السياسة وإنما في مساحات التعبير، فعاد التعبير عن الرأي مرة أخرى إلى المساحات الافتراضية

جموع المتظاهرين المصريين في ميدان التحرير بالقاهرة، انتقلوا من الاحتجاج على مواقع التواصل الاجتماعي إلى الواقع. (11 فبراير/شباط 2011 - رويترز)

معروفة. وهذه المنصات الجديدة للتعبير عن الرأي تكفل للمدون ظهورا أكبر من ظهوره على مساحته الشخصية فقط.

2. فوضى المحتوى على مواقع التواصل الاجتماعي:

برغم النجاح الكبير الذي حققته مواقع التواصل الاجتماعي، سواء في عدد المستخدمين (على سبيل المثال يستخدم الفيسبوك شهريًا 1٫7 مليار إنسان من أصل 7٫4 مليارات يعيشون على ظهر كوكبنا)، أو في الأرباح التي تحققها الشركة (حققت شركة الفيسبوك أرباحا مقدارها 17 مليار دولار عام 2015 وحده)، فإن أبرز موقعين للإعلام الاجتماعي يفتقدون تقنية البحث التي تسهل الوصول على محتوى بعينه بسرعة وسهولة، وتفتقر إلى أدوات تسهل ذلك باستثناء أداة الوسم (هاشتاغ)، مما يعوق إمكانية العودة إلى محتوى بعينه وسط متاهة المحتوى الموجودة على مواقع وتطبيقات الفيسبوك وتويتر وإنستغرام، مما يجعل المدونات هي الوسيلة الأمثل للمحتوى التراكمي.

3. أداة فعالة لترك البصمة الذاتية وجذب المزيد من المتابعين:

أحد الأهداف الأساسية للإعلام هو «إحداث التأثير». وعندما أصبح تأثير بعض الأفراد يساوي أو يتجاوز أحيانا تأثير منصات إعلامية كبيرة ومعروفة (على سبيل المثال الإعلامي المصري باسم يوسف لديه ثمانية ملايين متابع على حسابه على موقع تويتر، بينما صحيفة ذي غارديان البريطانية عدد متابعيها 5٫8 ملايين)، أصبح الجميع يسعى لأي وسيلة بدورها قد تزيد عدد المتابعين ومنها المدونات، خاصة مع إضافة بعض المواقع إلى وصلات للصفحات الشخصية للكتّاب على عدد من مواقع التواصل الاجتماعي، فالمدونات تسهم إلى حد كبير في تسليط الضوء على الكاتب، مع حرص عديد من المنصات على نشر صورته الشخصية على مواقع التواصل مرفقة بتدوينته.

تحديات تواجه منصات التدوين في العالم العربي

1. التنوع الجغرافي:

ثراء وتنوع الخلفيات الثقافية والظروف الاجتماعية والسياسية للقارئ في الوطن العربي وخارجه أمر قد يعتبره البعض ميزة كبيرة، لكنه في ذات الوقت تحد كبير لأنه يحتم انعكاس هذا التنوع على نوعية المحتوى المقدم على منصات التدوين. وهو أمر تحقيقه ليس سهلا كما رصدنا في ما تقدمه المنصات القائمة بالفعل، فمنصات التدوين العربية تستهدف بلدان الخليج والشام وشمال أفريقيا (مصر والسودان والمغرب العربي)، إضافة إلى عرب المهجر المنتشرين في أصقاع الأرض. ومؤخرا يمكن إضافة دول الجوار كتركيا وإيران حيث زادت نسبة المطلعين فيها على اللغة العربية لظروف سياسية معروفة..

برصد ما قدمته منصات التدوين على مدى السنوات القليلة الماضية، لا نستطيع القول إن إحدى هذه المنصات في العالم العربي نجحت في تجاوز هذا التحدي. قليلة هي الأصوات الخليجية والمغاربية على منصات التدوين، مقابل التدفق المستمر من الشام ومصر وفلسطين، ربما لأن معظم القضايا الساخنة تحدث في مشرق الوطن العربي. ويبدو أن أحدث هذه المنصات في العالم العربي -مدونات الجزيرة- أدركت ذلك التحدي قبل الانطلاق وسعت لتجاوزه، ويؤمل أن يمتد التنوع الجغرافي إلى أبعد من ذلك فتظهر أصوات من الأقليات في العالم العربي كالأكراد والأمازيغ والنوبيين والبدو و«البدون»، ليبقى السؤال: هل يستمر التنوع الذي ظهر في فترة البداية؟

2. الإفلات من فخ الاستقطاب الأيدولوجي:

تتحول أحيانا هذه المنصات إلى ميكروفون أحادي الصوت موجه تبعا للسياسة التحريرية للمؤسسة التي ينتمي إليها والجهة التمويلية التي ترعاه، أو لتفضيلات معينة تتعلق بأيدولوجيات الفريق الذي يديرها.

3. ميلان الدفة لصالح البوح بالتجارب الشخصية على حساب صناعة الأفكار.

تفتقد منصات التدوين الموجودة حاليا على ساحة الإعلام العربي إلى الجمع بين أمرين: الأول حث الكتّاب على رواية قصتهم الفردية والمتميزة أيا كانت زاويتها، فلكل إنسان قصة متميزة لا يشاركه فيها أحد. والثاني خلق حالة من الزخم وصناعة الأفكار وطرق المساحات غير المطروقة، ثم التفاعل بين هذه الأفكار المختلفة من خلال حث الكتاب والجمهور على التفاعل وتناول ما ينشر ليس فقط بالتعليق

القصير على صفحات التواصل الاجتماعي، ولكن من خلال الكتابة المرتدة لمقارعة الحجة بالحجة والفكرة بالفكرة أو لإلقاء الضوء على جانب معتم من الصورة، فتتحول أحيانا منصات التدوين إلى ساحة بوح وليست ساحة التقاء وتفاعل أفكار.

حتى الآن طغى البوح بالتجارب الشخصية على الجانب الآخر، وقليلة هي حالات التفاعل الحقيقية أو الجدل الحيوي التي خلقتها منصات التدوين حول فكرة ما يكتب حولها أكثر من صوت، يذكر منها ما حدث حول مشكلات مُلحَّة في العالم العربي، كمشكلة الزواج أو قضية الحوار حول شخصية دينية معروفة.

ماذا يحدث في «غرفة التحكم» لمنصة التدوين؟

لكل منصة تدوين «غرفة تحكم» شبيهة بتلك التي نجدها في غرف الأخبار، تمر بها المدونات قبل أن تأخذ طريقها إلى النشر على المنصة، فماذا يجري في هذه الغرفة؟ وكيف يتم الحكم على المحتوى؟ ولماذا لا تنشر بعض المدونات وتنشر أخرى؟

إذا أخذنا منصة مدونات هافينغتون بوست نموذجا، نجد أن هناك مهامَّ يومية تجري في هذه الغرفة. فبداية يتم مراجعة كل ما ورد من تدوينات.. هذه المنصة تأتي إليها المدونات إما عبر البريد الإلكتروني أو عبر المدونة إذا كان الكاتب سبق له النشر من قبل. بعد مراجعة المحتوى وإجازته في ضوء السياسة التحريرية للمنصة.. وبصفة عامة هناك خطوط حمراء تتمثل في ألا يكون في المحتوى تحريض على عنف أو كراهية أو إهانة لمعتقدات الشريحة العامة من المتلقين، وبالطبع بعض المحاذير السياسية الأخرى.. بعد المراجعة والإجازة، يُرسَل محتوى المدونة إلى المراجعة اللغوية، ويتم تجهيز المدونة من ناحية الأمور التقنية وإضافة الصور اللازمة لها سواء الظاهرة في النشر الخارجي أو الداخلية، ثم يتم النشر. وتأتي المرحلة الأخيرة من متابعة عملية النشر، فكثيرا ما تحدث مراجعات لما تم نشره سواء على الموقع أو على وسائل التواصل الاجتماعي.

حتى الآن طغى البوح بالتجارب الشخصية على الجانب الآخر في كتابة المدونات. (رويترز)

العاملون في «غرفة التحكم» يطمحون دوما إلى تقديم المحتوى الذي يحتاجه القارئ المتابع للمنصة في هذا التوقيت بالتحديد، خاصة أن بعض الأحداث المتسارعة في عالمنا العربي وفي العالم تتسم بالغموض فيأمل القارئ أن تساهم مدونة ما في توضيحها.. على سبيل المثال مدونة نهى خالد عن رحيل رئيس الوزراء التركي الأسبق عن السلطة.

ومن ناحية أخرى يتمنى الجالس في غرفة التحكم أيضا تلبية رغبة جميع الكتاب بنشر مدوناتهم، وهو أمر يستعصي أحيانا في ضوء محدودية الوقت المتاح لقراءة ومراجعة ونشر كل ما يصل من محتوى، وهو ما يشكل تحديا دائما لمن يقود غرفة التحكم في المدونات، ويحاول التغلب على هذا التحدي بأن يكون لديه خريطة واضحة أمامه لأهم المدونين في العالم العربي، فيوازن بين «من يكتب عن ماذا» إذا ما طرأت أحداث جارية تحتم تقديم محتوى يتعلق بقضية ما وبين المحتوى الذي يأتي من الكتاب بصورة عادية.

الوصول إلى تجربة تدوينية ناجحة

في فترة تاريخية يزيد فيها الاستقطاب السياسي والإعلامي وتفوق فيها الصراعات أي مرحلة تاريخية أخرى، تصبح لمنصات التدوين أهمية كبرى يعول عليها أمل كبير في إيجاد مساحة خارج هذا الصراع الإعلامي المؤجج الذي نشهده. وفي ذلك مسؤولية مشتركة بين إدارة المدونات و«شعب المدونات» إذا جاز لنا أن نطلق هذا المصطلح على محبي المدونات وكاتبيها.

من الأمور الجديرة ببذل الجهد، أن يكون لكل إدارة مدونة خريطة طريق ما وموازين توازن بين الأصوات أو الاهتمامات، وهو مجهود إضافي ليس بالهين خاصة في ضوء التدفقات اليومية على فرق العمل من عشرات المدونات والأفكار والتواصلات بعدها والموضوعات الجديدة التي تطرحها الظروف السياسية والدولية، لكنها بالتأكيد مهمة تستحق بذل الوقت والجهد، لأن نجاح وتنامي حجم منصة التدوين مرهون بهذه التفاصيل «الصغيرة»، إضافة إلى شروط أخرى كمساحة الحرية والتوازن بين عرض الأفكار والأيدولوجيات المختلفة.

أما « شعب المدونات» فيمكن الأخذ في الاعتبار أن وسائل الإعلام التقليدية أصبحت لا تطرب المشاهدين والمستمعين والمتابعين كما السابق، ودائما قصة شيقة تأخذ قالب التدوينة سواء أكانت في الاقتصاد أو التعليم، وإدارة الحياة، والتنمية البشرية، والتنمية الروحية، لها مذاق خاص ويتطلع القارئ إليها، فالكتابة في موضوعات عميقة ولكن من وجهة نظر فردية دائما ما يكون لها تأثير عظيم.

أيضًا الملاحظة الواجب ذكرها لجمهور المدونات هي «اسمح لهم أن يتفاعلوا مع ما تكتب».. فإدماج محتوى ما من وسائل التواصل الاجتماعي في متن المدونات وسيلة جيدة تحث على التفاعل مع محتوى المدونات ومشاركته.

من المهم أيضا إضافة تعريف مختصر في نهاية كل تدوينة عن الكاتب.. «إذا كان هناك فيل في الغرفة فعليك تقديمه».. هكذا قال الأستاذ الأميركي راندي بوش في محاضرة هامة بعنوان «المحاضرة الأخيرة». وربما يكون من الجيد أن يضاف سطران في نهاية كل تدوينة عن اهتمامات المدون غير التقليدية، مثل (مهتم بالزراعة المنزلية، مهتم برحلات السفاري في أفريقيا، أو أم لطفلين لا ينامان قبل الواحدة صباحا).. فتلك التعريفات البسيطة تدفع المدونين إلى الإبداع في تقديم أنفسهم وتضفي لمحة لطيفة على المحتوى.

المقابلة الصحفية.. متعة الحوار

ندى الأزهري

في كل مرة أذهب فيها لإجراء حوار مع شخصية ما، تنتابني مشاعر عدة وتدور في رأسي تساؤلات شتى، لكن أكثر ما يشغلني هو قدرتي على جعلها تفضي لي بما يحقق رضى الطرفين، ومدى تمكني فيما بعد من التعبير جيدا -ولن أقول تماما- عما أرادت الشخصية قوله أو توصيله.

قبل..

بشكل عام، يتطلب إجراء حوار صحفي مع شخصية ما توفر سبب مباشر كإصدار كتاب أو عرض فيلم أو مشاركة في حدث ثقافي.. قد يكون من الصعب أحيانا الحصول على المقابلات الصحفية مع شخصية شهيرة خارج هذا الإطار. وحين لا يحظى الصحفي بلقاء من يرغب في تقديمه للقراء أو للمشاهدين في المناسبات العامة، يتوجب آنذاك الاتصال به شخصيا. ثمة شخصيات تحذر الصحفي الذي يأتي هكذا واثقا ويطلب اللقاء خارج إطار حدث ما، وتزداد الصعوبة حين يكون هذا مستكتبا ولا يتبع صحيفة أو وسيلة إعلامية محددة، أما حين تكون الوسيلة الإعلامية أجنبية (كوسائل الإعلام العربية خارج الوطن العربي) لا تعرف الشخصية شيئا عنها وعن مكانتها، فإن محاولات الإقناع بإجراء الحوار تغدو أكثر مشقة.

في مستهل العام 2000، مع بداية عملي الصحفي في فرنسا كمراسلة ثقافية لبعض الصحف والمجلات العربية، لم يكن الإنترنت بهذا الانتشار الذي عليه اليوم. كان إجراء أي حوار صحفي يستلزم الاتصال مع الملحق الصحفي للشخصي -إن وُجد- وهو المكلّف بترتيب حيثيات اللقاء وتزويد الصحفي بالملف المعرّف بالفنان أو الأديب، ولم يكن العثور عليه بالأمر اليسير دائما، فكانت الفرحة الأولى تأتي من الحصول على هذه المعلومة، ثم الاتصال والاتفاق والانتظار.. انتظار وصول الملف عبر البريد.

صحيح أن المعلومات عن الشخصية تتوفر اليوم على الإنترنت وهي أكثر غزارة بما لا يقارن، لكن التعامل مع الملف كان أكثر سهولة لتركيزه الشديد واحتوائه على المهم من مسيرة الشخصية.. فوفرة المعلومات عبر الشبكة اليوم قد تحيد بالصحفي عن هدفه وتربكه إن لم يستطع تحديد خط سير المقابلة منذ البداية، وإجراء محاولة أولية لسبر شخصية الضيف والتركيز على نقاط مهمة في مسيرته تستحق إلقاء ضوء عليها. في جميع الأحوال فإن المعلومات لا تعني الاكتفاء بما يقدمه الملف أو الإنترنت، فقراءة عدة كتب إن كانت الشخصية أدبية، أو مشاهدة عدة أفلام إن كانت فنية، ضرورة لا غنى عنها للحصول على مقابلة غنية وجعل الضيف يتفاعل مع الأسئلة.

صعوبة تحضير المقابلة ترتبط كذلك بصاحبها، لا سيما إن كان مفكرا أو مؤلفا موسيقيا، وباللغة التي تتم بها. فوجود مترجم يغير من طبيعتها ومسارها والتحكم بها.. من الأفضل أن يلمّ الصحفي بعدة لغات وأن يكون مطلعا على معظم أعمال الضيف المحاوَر، أو أهمها إن لم يتسع له الوقت. أما من يقرر أهميتها فهي شهرتها، وهذا أمر لا مفر منه. مع هذا، فلا بد ألا يكتفي الصحفي بذلك، فيضيف أيضا لمسته الخاصة وميله الشخصي لعمل من الأعمال ووجهة نظره. ليس أكثر ملالا للجمهور ولصاحب العلاقة من الأسئلة المكررة والسطحية التي لا تعكس شخصية المُحَاوَر ولا ثقافته.

ثمة من يرفض إجراء مقابلة مع صحفيين لا يعرفهم، حتى لو تبع هؤلاء مؤسسة إعلامية شهيرة. حين التقيت للمرة الأولى بالمخرج الفلسطيني إيليا سليمان، لم يكن حينها مشهورا، كان ذلك في مهرجان

المخرج الفلسطيني إيليا سليمان. مهرجان كان - فرنسا. 22 مايو/أيار 2002. رويترز.

المخرج الإيراني أبو الفضل جليلي (يمين)، ندى الأزهري (وسط)، المخرج الإيراني أمير نادري (يسار). نانت، فرنسا.

فرنسي يعرض فيلمه الأول «سجل اختفاء». أعجبتُ كثيرا بالفيلم وطلبت مقابلته فتهرب، ثم سنحت لنا عدة فرص للحديث حول الأوضاع العربية وحول فيلمه، وفي اليوم الأخير قبل أن يغادر قال لي: كنت طلبت مني مقابلة؟ الآن يمكننا أن نتحدث.

لكن أديبة سورية رفضت اللقاء حين حادثتها هاتفيا.. كنت في بداياتي وكنت قرأت لها عدة قصص واشتريت أخرى لأعرف المزيد عنها، لكنها صدتني وقالت لي ما معناه: ما أكثر الصحفيين اليوم، «أكثر من الهم على القلب». وأعتقد أن الكاتب الذي لا يشعر بالشخص الذي يحادثه ولا يستطيع تخمين مدى صدقه وثقافته، هو كاتب ينقصه الكثير.

أثناء..

كنت أنسى أحيانا أثناء اللقاء أنني صحفية، وقتي محدود ومقالتي محددة، لكن فن الإصغاء من أهم ما يجب أن يتمتع به المحاور، بمعنى الاهتمام بإخلاص وصبر لما يقوله الآخر، ومحاولة استنتاج أسئلة من الإجابات وعدم الاكتفاء بالقدوم مع لائحة جامدة من الأسئلة، فثمة مكان للارتجال والإضافة إن لمس الصحفي جديدا أو أهمية ومتعة فيما يسمع.

«نسيان الزمن» خلال الحوار رفاهية لا يحظى بها الصحفي دائما، فوقته محسوب عليه. أكثر مقابلة شعرت فيها بكل دقيقة تمرّ كانت مع المخرج الإيراني عباس كيارستمي، إذ حدد منذ البداية -وبكل لباقة ولطف- مدتها.. هي إحدى المقابلات النادرة لكيارستمي التي أجريت للصحافة العربية، وكانت أسئلتي كثيرة وإجاباته مسترسلة.. كان هذا من دواعي سروري بالطبع، بيد أني قلقت من عدم تمكني من طرح كافة المواضيع التي تهمني في حوار مع شخصية استثنائية كتلك. لكن ليس الوقت فحسب هو ما يحدّ من مدة المقابلة، بل عدد الكلمات كذلك. وبما أنني أنفر من مقاطعة الضيف حتى لو استرسل في سرد طويل، أكون على ثقة تامة بأني لن أورده عند كتابة الحوار، إلا أنني أهتم بكل ما يسرده وأنظر إليه حينها كمعلم أستفيد من معرفته. وبشكل عام أختار الشخصية بعناية ولا أجري حوارا معها لمجرد تواجدها أمامي بالصدفة في المهرجانات السينمائية التي أحضرها مثلا. أذكر هنا مقابلة مع الموسيقي السوري قدري دلال سرد فيها ذكريات رائعة لم أستطع للأسف -محكومة بعدد الكلمات- نشر سوى نصفها.

في المقابل ثمة مشكلة مغايرة وهي: الضيف القليل الكلام.. فليس كل من برع في الفن مثلا يبرع في الكلام. تتأتى الصعوبة في هذا النوع من الحوارات من جعل الجواب أطول من السؤال! نتحايل على هذا المأزق بطرح أسئلة إضافية ومحاولة التوصل إلى ما يثير شهية الشخصية للإفضاء، كالتركيز على عمل لها أو التعمق أكثر في جواب ما أو طرح أسئلة عامة. حصل هذا على سبيل المثال مع الممثلة الإيرانية والمخرجة نيكي كريمي حين التقيتها في طهران وكان الحوار بالإنجليزية، وقد يكون هذا أحد الأسباب التي جعلت إجاباتها مختصرة رغم توفر الوقت.

كانت بعض المقابلات التي أجريتها خارج اختصاصي أحيانا، فمعرفة الصحفي ليست كمعرفة الباحث. وكنت أدرك تماما مدى محدودية ثقافتي في الفلسفة مثلا وفي علم الموسيقى، رغم تحضيري الطويل لمقابلات من هذا النوع. لكن حوارين مع المفكر السوري طيب تيزيني والمؤلف الموسيقي اللبناني نداء مراد كانا من أمتع وأصعب مقابلاتي على الإطلاق وربما أطولها.. كنت أستمع بتركيز شديد لما في أقوالهما من عمق وجدة ومنفعة. كانت نوافذ جديدة تنفتح أمامي وتُدخل نورا إلى روحي. وبخلاف نداء مراد، كان تيزيني مسترسلا منفتحا منذ بداية الحوار، بينما كان مراد حذرا -حتى لا أقول متشككا- في البداية ثم انطلق بعدها في حديث عن الموسيقى، وإن كان معقدا، لكنه شرع أمامي آفاقا جديدة. يقودني هذا للحديث عن فنانين وكتّاب ينظرون بعين الريبة إلى الصحفي، ويشتكون من أن بعضهم يُقوّلهم ما لم يقولوه أو ينشر عبارات لهم مجتزأة وخارجة عن سياقها تماما. ولهذا يصادف أحيانا أن تطلب شخصيات قراءة الحوار قبل نشره.

لم تكن عملية إحراج الضيف من دواعي سروري، وحين كان يشدد على أن بعض ما يقوله لي ليس للنشر، أحترم تماما رغبته رغم معرفتي بأنه في الكثير من الأحيان لن يطّلع على ما كتبته، وأن ما أدلى به قد يجذب القراء ويثير ضجيجا.. لكنني لم أكن يوما من هواة إثارة الضجيج، ولم تكن الإثارة من دوافعي في أي مرة كتبت فيها ولا أعبأ بها، وحين لا يقرأ لي إلا عدد محدود؛ أكون سعيدة بهؤلاء مهما قل عددهم.

الممثلة والمخرجة الإيرانية نيكي كريمي. تصوير: ندى الأزهري.

لكن قد يتسبب الصحفي أحيانا في إحراج ضيفه دون قصد. لقد أجريت حوارات كثيرة مباشرة باللغات الثلاث العربية والإنجليزية والفرنسية، ولكن بما أنني شديدة الاهتمام بالسينما الإيرانية فقد احتجت إلى الترجمة من الفارسية حين التقيت عددا من كبارها، وحين حصل مرة ووقعت فنانة في مأزق بسبب تصريحاتها لي، شعرت بالارتياح حين علقت المشاكل على الترجمة.

يتيح إجراء المقابلة وجها لوجه مواجهة الشخصية ورصد انفعالاتها وإجاباتها العفوية التي تبين جزءا من صفاتها قد لا يظهر في الحالات العادية عند التفكير بالإجابة.

ولا أحبِّذ الأسئلة والردود المكتوبة، ومن ضمن عشرات المقابلات الصحفية التي أجريتها لم أجر سوى واحدة عبر الهاتف وأخرى عبر النت.

بعد..

تأتي في النهاية عملية الكتابة، والقرار الصعب نشر المقابلة كنص أم كسؤال وجواب؟

في البداية كان هذا يعتمد على أهمية ما تقوله الشخصية وغزارته وعلى الشخصية نفسها، فمن المتعارف عليه في العمل الصحفي تفضيل المقابلة المقالة، لكن في كثير من الأحيان أترك للقلم أن يختار، وأحيانا كنت أقرر كتابة اللقاء كحوار لأهمية ما ورد فيه ثم ما ألبث أن أتنقل تلقائيا إلى العكس. وأصعب ما يواجه الصحفي في هذه المرحلة هو «القطع»، كالمخرج الذي يعزّ عليه اقتطاع مشاهد من فيلمه، ولكننا محكومون بعدد الكلمات، ودائما بعدد الكلمات. ولو أن بعض مسؤولي التحرير لا يعبؤون تماما بهذا.

أهم ما في العمل الصحفي الإصرار والمثابرة والجهد والإخلاص، فتلك تشرّع الأبواب لصاحبها، إن لم يكن على المحيط، فعلى الجدول أو النهر وهما أجمل لديّ.

درس في الأنسنة من قاع العالم

عميد شحادة

أطفال قرية مكحول في العراء بعد أن هدم الاحتلال الإسرائيلي بيوتهم. (تصوير أيمن نوباني)

ما زلتُ أذكر تلك «النكزة» في خاصرتي من إصبع أحد زملائي الصحفيين في وكالة «وفا»، عندما كنا في جولة صحفية في قرى قاع العالم. يومها في 20 مارس/آذار 2015، كان الجو لطيفا صباح فصل ربيع يغري الصحفيين الفلسطينيين والأجانب بإنجاز قصصهم من تحت سطح البحر، قبل قدوم الصيف الذي لا يطاق في الأغوار الفلسطينية المحتلة.

لا أذكر الآن عن ماذا كنا نبحث عندما وصلنا إلى قرية «مكحول»، وهي واحدة من عشرات القرى الفلسطينية المهددة في الأغوار. لقد نسيت كل شيء تقريبا ما عدا «النكزة» ومشهد أطفال ونساء القرية التي دخلناها مع انسحاب الجرافات الإسرائيلية منها ووجدناها ممسوحة عن وجه الأرض.

وبينما كنا نقف على أطلال «مكحول» بصمت وحزن، يسجل كل منا ملاحظاته في دفتر، مَدّ زميلي إصبعه بهدوء ونكزني في خاصرتي وقال «راقب ماذا يُصوِّر الصحفيون الفلسطينيون!». أتذكّر ذلك الآن وأنا أقارن نتائج بحثيْن منفصلين قدمتهما طالبتان من قسم الإعلام في جامعة بيرزيت كمشروعيْ تَخرُّج: الأول عن أنسنة أخبار شهداء القدس في الإعلام الفلسطيني خلال الهبة الشعبية الأخيرة التي انطلقت مطلع شهر أكتوبر/تشرين الأول 2015، والثاني عن أنسنة أخبار القتلى الإسرائيليين في الإعلام العبري في نفس الفترة.

نتائج الأبحاث تؤكد المؤكد، وتُظهر تفوق الإعلام الإسرائيلي على الفلسطيني في موضوع أنسنة الأخبار.

في بحثها حول الأنسنة في الإعلام الفلسطيني، رصدت الباحثة شذى دجاني 600

مادة صحفية نُشرت عن 38 شهيدا مقدسيا قضوا في الفترة الواقعة بين أكتوبر/تشرين الأول 2015 وفبراير/شباط 2016، موزعة بين أكثر المواقع الإخبارية الفلسطينية تصفحا حسب تصنيفات موقع «أليكسا» العالمي وعددها 12 موقعا. وأخضعت الباحثة هذه المواد لاستمارة تحليل المضمون الكمي والكيفي للوصول إلى النتائج.

وفي الوقت ذاته كانت باحثة أخرى تدعى أصالة أبو حديد تُنجز بحثا عن الأنسنة في الإعلام الإسرائيلي، رصدت فيه 1225 مادة صحفية نُشرت عن 27 قتيلا إسرائيليا، موزعة بين أكثر المواقع الإخبارية الإسرائيلية تصفحا حسب تصنيفات موقع «أليكسا» وعددها 11 موقعا. ومثل زميلتها شذى، أخضعت أصالة هذه المواد لاستمارة تحليل المضمون الكمي والكيفي بغية الوصول إلى النتائج.

تبيّن مع الباحثة الأولى أن الإعلام الفلسطيني يعتمد أكثر على الخبر المجرد ومن ثم الإحصائيات في تغطية أخبار الشهداء، إذ بلغت نسبة الأخبار المجردة التي نشرتها المواقع الإخبارية الفلسطينية عنهم 47٪، بينما كانت نسبة وجود قصص صحفية مؤنسنة 2.7٪ فقط.

هذه النسب ليست غريبة بما أن 87.3٪ من 600 مادة صحفية تم رصدها في البحث، لم تتطرق إلى أي جانب من الجوانب الإنسانية العادية في حياة الشهداء أو معاناة أهلهم وأصدقائهم.

على الجهة الأخرى تبيّن للباحثة الثانية اعتماد الإعلام الإسرائيلي بشكل مكثف على أسلوب أنسنة أخبار القتلى الإسرائيليين، وعرض كل ما له علاقة بالحياة الطبيعية للإنسان الذي قتله الفلسطينيون، وتغييب أي شيء يتعلق بالجانب العسكري لحياة القتيل إن كان جنديا، مع العلم أن غالبية القتلى جنود.

وبلغت نسبة أنسنة الأخبار المنشورة على المواقع العبرية محل البحث 61.4٪ من أصل 1225 مادة صحفية تناولت فيها الصحافة الإسرائيلية القتلى. بعيدا عن الأبحاث، فالمتابع للصحافة الإسرائيلية لا يحتاج إلى كثير من الجهد ليفهم سبب تفوقها عالميا على الصحافة الفلسطينية ومعظم الصحافة العربية، ليس فقط في نشر روايتهم، بل في القالب الصحفي نفسه وزواياه المختلفة، إذ يستغل الصحفيون الإسرائيليون أبسط التفاصيل وأدقها لتصوير قصصهم بطريقة درامية عاطفية جذابة، وإن كانت كاذبة.

هذه التفاصيل البسيطة التي تؤنسن الأخبار موجودة بشكل مكثف في قصص الفلسطينيين على أرض الواقع، لكن الصحفيين لا يلتفتون إليها، ويعتبرونها زائدة. وهذا ما يثبته البحث الذي قامت به شذى دجاني ويكشف مدى تركيز الصحافة الفلسطينية على الحدث لحظة وقوعه وتسابق صحفييها في نقل الخبر العاجل المجرد فقط، فعندما يسقط شهيد نقرأ اسمه وعمره ورقمه في عداد الشهداء، وقليلا ما ينجز الصحفيون فيما بعد قصصا

ما تبقى من مساكن فلسطينيي قرية مكحول بعد هدمها بجرافات الاحتلال. (تصوير أيمن نوباني)

متأنية عن حياته. والأمر ينطبق على كل جوانب التغطية، لا على تغطية الشهداء فقط.

التفاصيل البسيطة ذاتها للقتلى كانت رأس مال الصحافة الإسرائيلية كما يبين بحث أصالة أبو حديد من ناحية اهتمام الصحفيين الإسرائيليين بسرد أحلام القتيل مثلا، وأنه كان في طريقه للاحتفال بزفاف صديقه يوم مقتله، والأيتام الذين يتركهم خلفه إن كان أبا، وقصص كاملة عن الذين كانوا بجواره وأخطأتهم رصاصات الفلسطينيين، أين اختبؤوا؟ ومع من تحدثوا آخر مكالمة؟ وماذا قالوا فيها؟.. إلخ.

يقول أستاذ الإعلام الاجتماعي في جامعة بيرزيت محمد أبو الرب الذي تابع الأبحاث وأخضعها لأساسيات البحث العلمي السليم، إن «النتائج لم تكن مفاجئة لأن الصحافة الفلسطينية في مجملها إما بروتوكوليَّة أو أخبار علاقات عامة، وقليلة هي القصص الصحفية وكذلك التحقيقات، على العكس من الصحافة الإسرائيلية التي تولي اهتماما للقصص الصحفية أكثر بكثير من التغطيات الخبرية أو البروتوكولية».

وبخصوص أنسنة قصص الفلسطينيين ومعاناتهم، يعلّق أبو الرب الأمل في أن «هناك تزايدا ملحوظا نوعا ما في حجم القصص الإنسانية، عززه الإعلام الإلكتروني وكذلك الاجتماعي». لكن هناك شيء لا مفر من ذكره، فتأثير الطريقة التي تتناول بها الصحافة الإسرائيلية الأحداث بدأ يتسلل إلى المجتمع الفلسطيني ذاته عن طريق صحفيين إسرائيليين يساريين يتبنون -ولو ظاهريا- مواقف داعمة لحقوق الفلسطينيين، فيعتقد بعض الفلسطينيين -وخاصة في المخيمات- أن الصحفي اليساري الإسرائيلي يكتب عن الهم الفلسطيني أفضل من الصحفيين الفلسطينيين، وهذا شيء خطير وبعيد عن الحقيقة، لكن غياب الزاوية الإنسانية في تغطية الصحفيين الفلسطينيين للأحداث فتح للناس باب الاعتقاد بما سبق.

يُعقب أبو الرب على ذلك بقوله «لا يمكن القول بأن تغطية الصحفيين الإسرائيليين اليساريين أفضل من تغطية الفلسطينيين، ولكن للدقة هم معتادون على كتابة القصص الصحفية أكثر من السياق الإخباري البروتوكولي الطاغي في الصحافة الفلسطينية».

هناك في قاع العالم (وهو مصطلح يطلق على الأغوار الفلسطينية التي تعتبر أخفض بقعة في العالم تصل إلى 400 متر تحت سطح البحر)، راقبتُ -مدفوعا بنكزة في خاصرتي من إصبع زميلي- كيف يتسابق صحفيون من فضائيات فلسطينية ومواقع إلكترونية معروفة محليا، في تصوير الهدم في قرية «مكحول» كشيء مجرد، دون الالتفات إلى الأطفال الحفاة العراة الذين يزحفون على الأرض فوق الشوك والحصى تائهين، بعيدا عن أمهاتهم اللاتي انشغلن بجمع بقايا بيوت الصفيح والخيام بعد هدمها.. صَوّرَ الصحفيون حديد البيوت المهدومة وتركوا الإنسان.

ملازم أول زيف فريزا يجتمع بوالديه خلال وقف إطلاق النار لمدة 12 ساعة خارج المنطقة العسكرية بالقرب من مستوطنة كفار عزة، 26 يوليو/تموز 2014. (تصوير أندرو بورتون - غيتي إميجيز).

رحلة الجزيرة في طريق وعر

غسان أبو حسين

بـدت الجزيـرة مفاجئة لمشـاهديها ولصناع القرار في القصـص والعناوين والمحتوى والضيوف، وسـاهمت بشـكل غير مباشـر في تعزيز منسـوب الثقة بالقدرة على صنع الفعـل الإعلامي وصياغة رأي عام.

أحـداث القصـة تبـدأ مـن عاصمتيـن: الدوحـة ولنـدن. في قطـر كانـت الأجـواء والنـاس تعيـش عهـدا جديـدا مـع تسـلم الشـيخ حمـد بـن خليفـة آل ثانـي مقاليـد الحكـم عـام 1995، وقيادتـه مرحلـة جديـدة لبلـده بـكل مـا حملتـه لاحقـا مـن تغيّـرات في المشـهد السياسـي والإعلامـي على الصعيـد الداخلـي والإقليمـي ولاحقـا الدولـي.

وفي لنـدن كانـت تجربـة النسـخة التلفزيونيـة العربيـة (الأولـى) مـن هيئـة الإذاعـة البريطانيـة «بـي بـي سـي» تـودّع الفضـاء.. هكـذا، وفي منتصـف الطريـق وجـدت قطـر والطاقـم الإعلامـي الخـارج مـن بـي بـي سـي نفسـيهما وجهـا لوجـه، فيمـا سـيصبح بعـد ذلـك أبـرز تجربـة إعلاميـة عربيـة تصـل إلـى العالميـة.

يـروي رئيـس مجلـس إدارة شـبكة الجزيـرة الإعلاميـة الشـيخ حمـد بن ثامـر آل ثانـي المشـهد الـذي رافـق تأسـيس قنـاة الجزيـرة بعـد رفـع الرقابـة عـن الصحافـة المحليـة عـام 1995، بقولـه «اسـتدعاني سـمو الأميـر (الوالـد)، وكان الحديـث حـول إنشـاء قنـاة إخباريـة تتنـاول الشـأن العربـي».

تشـير روايـة الشـيخ حمـد بـن ثامـر الـذي يُنظـر إليـه في مسـيرة القنـاة بوصفـه عقـل الجزيـرة وعقالهـا، إلـى الكـوادر المؤسسـين الذيـن قدمـوا إلـى مشـروع الجزيـرة بخبـرة مهنيـة عميقـة تأصلـت مـع تجربتهـم في هيئـة الإذاعـة البريطانيـة، وهـي تجربـة أسـبغت لاحقـا الكثيـر مـن أسـلوب الرصانـة في المضمـون وفي المعالجـة.

سنوات المفاجأة

جـاءت الجزيـرة بعـد سـنوات معـدودة مـن حـرب الخليـج الثانيـة (يناير/كانـون الثانـي 1991)، وكان العـرب منقسـمين بعـد انتصـار التحالـف الثلاثينـي الغربـي على النظـام العراقـي السـابق بعـد غـزوه الكويـت (2 أغسـطس/آب 1990)، وبقيـت صورة مراسـل شـبكة «سـي أن أن» الصحفـي الأميركـي بيتـر آرنـت في ذاكـرة المشـاهدين العـرب، رمـزا لقـوة الإعـلام الغربـي وتأثيـره، فقـد كان آرنـت الصحفـي الأجنبـي الوحيـد الـذي سـمح لـه الرئيـس العراقـي السـابق صـدام حسـين بتغطيـة مجريـات الحـرب مـن أرض العـراق.

كان ذلـك على مسـتوى المشـهد الإعلامـي، أمـا على الصعيـد السياسـي فقـد انقسـم العـرب في حـرب الخليـج الثانيـة ومـا سـبقها ومـا تلاهـا إلـى قسـمين: قسـم أطلـق على تلـك الـدول العربيـة التـي وقفـت مـع العـراق «دول الضـد»، وكان مفهومـا أن تتشـارك الـدول التـي وقفـت مـع الكويـت

صحفيون في غرفة أخبار الجزيرة أثناء التحضير لنشرة الأخبار، 2002. (رويترز)

في المواقف والرؤى والمصالح، لكن كان من المفاجئ أن تسأل الجزيرة -القناة التي تنطلق من قطر- الأمين العام الأسبق لمجلس التعاون لدول الخليج العربية عبد الله بشارة عما أنجزه المجلس لمواطنيه، بل وتواجهه برئيس التحرير السابق لصحيفة القدس العربي عبد الباري عطوان، وذلك في أولى حلقات برنامج الاتجاه المعاكس. ولعل تغطية الجزيرة بعد سنوات معدودات لعملية «ثعلب الصحراء» عام 1998، اعتُبرت الإنجاز الأول والأبرز لإعلام عربي لا تنقصه الندّية ولا المهنية في تغطية الأحداث الكبرى، وساهمت بشكل غير مباشر في تعزيز منسوب الثقة بالقدرة على صنع الفعل الإعلامي وصياغة رأي عام، وأصبح بإمكان العربي أن يفخر بالتجربة: «نحن هنا» لم نعد نخشى شيئا.

المدير العام الأسبق لشبكة الجزيرة وضاح خنفر يرى في حديثه للفيلم الوثائقي «أرى أسمع أتكلم»، أن أهم شيء فعلته القناة «أنها وضعت ما بين غرفة الأخبار وما بين السياسة وصُناعها مسافة، فأعطت للصحفيين الحق في أن يتحكم بما يكتب وبما يقول، لا بما يُملى عليه من أهل السلطة وصناع القرار السياسي في عالمنا العربي أو عالميا». إذن بدت الجزيرة مفاجئة لمشاهديها ولصناع القرار في القصص والعناوين.. في المحتوى والضيوف والمضامين.. وكأن فعل المفاجأة ارتبط بها منذ نشأتها، فقد كان وجود الصحن اللاقط (الدش) على أسطح المنازل فعلا ممنوعا -على سبيل المثال- في كل من السعودية وقطر حتى منتصف التسعينيات تقريبا من القرن الماضي.

استطاعت الجزيرة الانتقال كلاعب إعلامي عالمي ذي تأثير من خلال منافستها القوية في سوق الأخبار العالمية وصارت مصدرا مهما للخبر - غرفة قناة الجزيرة، 2002. (رويترز)

سنوات الانتشار والتحدي

كان واضحا أن الجزيرة تقف بتغطيتها حجر عثرة في معركة كسب القلوب والعقول، التي أطلقتها الإدارة الأميركية إبان عهد الرئيس الأسبق جورج بوش الابن. (رويترز)

استطاعت الجزيرة الانتقال كلاعب إعلامي عالمي ذي تأثير من خلال منافستها القوية في سوق الأخبار العالمية وصارت مصدرا مهما للخبر. وفي كتابه الصادر عام 2006 بعنوان «قناة الجزيرة.. لاعب إقليمي على المسرح الإعلامي العالمي»، يشير عبده المخلافي إلى قوة القناة «نظرا لدورها في تغطية الأحداث وفي التأثير على توجهات الرأي العام (...) واستطاعت قناة عربية صغيرة منافسة وسائل إعلام عالمية عملاقة، وأن تعكس خط التدفق التقليدي للمعلومات».

ولعل ذلك يفسر أسباب وخلفيات غضب القوى الكبرى خصوصا أثناء تغطية الجزيرة «للحرب على الإرهاب»، حيث كانت القناة -وفق المخلافي- في أكثر من مناسبة، النافذة الوحيدة للعالم على تلك الحرب التي كانت في الحقيقة أولى ضحاياها.

كانت الحرب الأميركية البريطانية على العراق (أبريل/ نيسان 2003) مثالا واضحا لمحاولة فرض «القوة العسكرية الحاسمة على المعرفة المتلفزة» كما ترى الباحثة الإعلامية رشا الإبياري، في أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه عن «التصوير التلفزيوني للحرب على الإرهاب». لكن الجزيرة أثبتت بجرأتها ومهنيتها حينئذ قوة امتلاك الصورة والخبر ونشرهما في مواجهة الآلة العسكرية، حتى لو كلفها ذلك أرواح مراسليها وأطقمها العاملة في الميدان. هل كان مراسل الجزيرة الشهيد طارق أيوب يدرك أن مساعدته للمصور في إعادة نصب الكاميرا على سطح مكتب القناة في بغداد قد تكلفه روحه؟ ربما.. لكنه بالتأكيد كان يعلم أن في الذهاب إلى العراق مغامرة كبيرة، وفي تغطية الأحداث يوم استباحة القوات الأميركية عاصمة الرشيد مغامرة أكبر. كان المشهد سوريا بامتياز، فحين تمّ تأمين التعتيم بعد قصف المكتب من قبل القوات الأميركية، تدفقت الدبابات إلى ساحة الفردوس.

ويؤكد هذا التفسيرَ العديدُ من الباحثين والمحللين، فهذا صمويل عزران من جامعة ملبورن الأسترالية يتوصل في رسالته «الجزيرة وتغطية الحروب الأميركية» إلى أن فحص التناول الأميركي للقناة من خلال المدونين وموزعي بثها وموقعها الإنجليزي على الإنترنت؛ يكشف عن قدرة وتصميم من قبل الإدارة الأميركية على الحدّ

من الخطاب الجماهيري الناقد..

كان واضحا أن الجزيرة تقف بتغطيتها حجر عثرة في معركة كسب القلوب والعقول، التي أطلقتها الإدارة الأميركية إبان عهد الرئيس الأسبق جورج بوش الابن.

ويتذكر أحد أبرز صحفيي الجزيرة ماجد عبد الهادي الذي غطى الحرب على أفغانستان والعراق ورافق جثمان زميله طارق أيوب من بغداد إلى عمّان، كيف أن القناة ووجهت بحرب ضروس استهدفت الحجر والبشر.

يرى ماجد أن مبررات انتقاد الجزيرة واهية، فقد هوجمت حينئذ لبثها صور الأسرى الأميركيين في أولى أيام الحرب على العراق (أبريل/نيسان 2003).. لقد كانت لتلك الصور قيمة إخبارية عالية، حيث كانت القوات الأميركية تدعي أنها تحقق نتائج على الأرض بدون خسائر، وفي الوقت ذاته كانت وسائل الإعلام الأميركية تزخر بصور الأسرى العراقيين.

وفيما بعد كانت الجزيرة تطلق حملة علاقات كبرى في وجه الثنائي بوش وبلير إثر تسرب محادثة قيل إن الأول كان يفكر في استهداف مقر القناة، بينما حاول الثاني عدله عن هذه الفكرة.

شكلت الأحداث في العراق استمرارا لطبيعة التعامل مع الجزيرة عقب الحرب الأميركية على أفغانستان قبل ذلك بعامين (2001)، واستهداف مكتبها هناك، واعتقال مصورها سامي الحاج لاحقا لأزيد من ست سنوات في غوانتانامو، ولاحقا سجن مراسلها في كابل تيسير علوني.

وترى الباحثة جوليان عواد في رسالتها «خطاب العروبة عن الجزيرة»، أن خطاب القناة ساهم مقابل ذلك في تثبيت «العروبة»، فقد قدمت «خطابا مركّبا ومعاكسا (...)، ومن خلال استخدام مواقف يعبّر عنها بمفردات مناهضة للاستعمار والإمبريالية فإنها بذلك تبني منحى عروبيا متصاعدا باستمرار».

دفعت الجزيرة ثمن هذا الخطاب وهذه الندية من حرية أطقمها ولاحقا من حياتهم، إذ مع احتفالها بالذكرى العشرين لانطلاقها كانت تحتفي بأنها القناة التي قدمت تسعة من صحفييها شهداء في مسيرتها من أجل نقل الحقيقة.

سنوات العاصفة

25 يناير/كانون الثاني 2011.. يتذكر مدير مكتب الجزيرة في القاهرة

إدارة نشرة الأخبار على الهواء مباشرة من غرفة التحكم.

الشيخ حمد بن ثامر آل ثاني رئيس مجلس إدارة شبكة الجزيرة الإعلامية (يمين)، ومحمد جاسم العلي مدير قناة الجزيرة الأسبق (يسار) في مؤتمر صحفي بالدوحة 2003 عقب استشهاد الزميل طارق أيوب في قصف أميركي استهدف مكتب الجزيرة في بغداد. (رويترز)

غرفة الأخبار - قناة الجزيرة 2002 (رويترز)

عبد الفتاح فايد أنه حاول يومها جاهدا إقناع أكثر من مسؤول تحرير داخل غرفة الأخبار بأن تأخذ قصة الاحتجاجات التي تشهدها القاهرة واعتصامات ميدان التحرير؛ حظها في أولويات القصص، أو ما يعرف لدى المنتجين باسم «Running Order»، لكنه لم يتمكن.

كانت قصتا الوثائق المسربة للمفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية حول القدس، وتوابع قطع المعارضة اللبنانية طريق المطار وحكومة نجيب ميقاتي، تتصدران الأخبار. لم يكن يدرك المشاهدون ولا قناة الجزيرة أن العالم أمام انتفاضة ستنتهي بثورة تخلع الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك.

لكن الجزيرة التي تابعت الأحداث في مصر لاحقا بشكل مختلف، وقررت قطع البرامج وفتح الكاميرا على الهواء المارّ من فوق سماء مصر، كانت تؤسس للمرة الأولى لما يمكن أن يعتبر «ثورة على الهواء».

مثّل تسلسل الأحداث لاحقا في المنطقة واتساع نطاق التغطية من تونس ومصر إلى اليمن والبحرين وليبيا وسوريا؛ ما اعتُبر أكبر تحدّ لمؤسسة إعلامية في حينه. فخلال الأيام الأولى من الثورة المصرية، كان هناك إدراك بأن ثمة أحداثا تاريخية تشهدها المنطقة، لكن حتى القائمين على أمر الجزيرة لم يطلقوا عليها «ثورة» إلى أن أطلق المصريون أنفسهم عليها هذا الاسم، وهو ما يؤكد أن القناة التي أسست في المنطقة ما بات يعرف بثقافة «حرية الرأي والرأي الآخر»، لم تكن هي التي أشعلت الثورات، بقدر ما كانت شاهدة عليها، وملهمة للعديد من نشطائها في تقدير قيمة الحرية.

ويدرك كل من تابع الجزيرة عبر العقدين الأخيرين أنها مثّلت منذ يومها الأول انعكاسا للواقع العربي في كل تجلياته وانكساراته، فحينما كان الشارع العربي توّاقا لحرية التعبير قدمت له المنصة، وحينما كان توّاقا للتعبير عن حريته غطته بالكاميرا.

حينما كان الشارع العربي متّحدا في رفضه للحرب الأميركية البريطانية على العراق عام 2003، لم يكن لمشاهدي الجزيرة مشكلة مع تغطيتها لما يحدث هناك، لكن حينما انقسم الشارع العراقي طائفيا بعد تلك الحرب، اتضح أن ثمة مشكلة عند من هو متضرر من هذه التغطية.

والأمر كذلك حتى في التغطية الإخبارية للقضية الأبرز، قضية فلسطين. فحينما حدث الخلاف والانقسام السياسي في الشارع الفلسطيني، بات هناك من يتحدث عما يصفه باللاحيادية. ولعل أفضل مثال على ذلك.. نوارة نجم -وهي من أبرز نجوم الثورة المصرية- إذ لخصت المشهد عشية تنحي الرئيس مبارك بقولها «أشكر الجزيرة.. ما فيش ظلم ثاني»، لكنها بعد ذلك غيّرت موقفها من القناة التي كشفت الظلم، حينما انقسم الشارع المصري سياسيا بحق الجزيرة. وهكذا كان المشهد في كل من اليمن وليبيا وسوريا وغيرها.. لقد تغيّر المزاج الشعبي العربي وانقسم على ذاته، ولم يعد هناك من قضايا توحده على قلب رجل واحد.

ويلخص الصحفي ماجد عبد الهادي المسألة بقوله: «لقد تغيرت نسب الشعبية تجاه الجزيرة، لكن نسب المشاهدة لم تتغيّر، إذ لا تزال الجزيرة هي المصدر الأول لكل من يبحث عن دقة الخبر وعمق التغطية».

ورغم تغير مزاج الشارع العربي إزاء الجزيرة، فإنها نجحت في تقديم أكبر حملة تضامنية إعلامية حقوقية عبر العالم لإطلاق سراح مراسليها من السجون المصرية عقب الانقلاب الذي شهدته مصر في يوليو/تموز 2013.

كان شعار الحملة «الصحافة ليست جريمة»، ردّا على محاولات تضليل رسمية لأنظمة عربية وفصائل حاولت أن تلصق في اللاوعي الجماهيري فعل الإدانة لمن يتابع الجزيرة أو يعمل معها، تحت مبررات واهية، وأصبح مكشوفا أن ليس للقناة أي مشكلة مع نظام عربي، لكن أي نظام عربي لديه مشكلة مع شعبه فإن له بالتالي مشكلة مع الجزيرة.

سنوات المنافسة

خلال العقدين الماضيين ظهرت العديد من القنوات المنافسة أو التي أريد لها منافسة «الجزيرة»، لكنها اصطدمت بسقف الحرية الممنوح لها، بعضها استمرّ أعواما وأخرى ساعات محدودة، لكن المنافسة لم تعد فعلا خارجيا متعلقا بالمؤسسات الأخرى بقدر ما أصبح أمرها متعلقا بالجمهور العربي وانشغالاته المحلية، بعد أن غابت قضاياه الكبرى.

ودفع نجاح نموذج الجزيرة إلى استثمار قطر في الإعلام أكثر، فظهرت مؤسسة «الريان»، وتم تطوير القناة المحلية «تلفزيون قطر»، وهكذا أضحت الاستراتيجية الإعلامية لا تقف عند حدود الجزيرة، كما هو أمر الميزانية كذلك.

مع هذا النجاح كان ثمة جيل قطري يكبر ويتسلح بأدوات ومهارات لا تقل عن مهارات العاملين في الشبكة الذين قدِموا من ثمانين جنسية ومن مؤسسات مختلفة.

فحين تخرج الشاب القطري جاسم سعد الرميحي من جامعة نورث ويسترن، كان عليه أن يمرّ ضمن مرحلة إعداد أهّلته لاحقا كي يصبح مراسلا ميدانيا للجزيرة من الخطوط المتقدمة للحرب في اليمن.. نعم في الميدان، ولعله انعكاس حقيقي لتأثير غير مباشر للقناة على الأدوار التقليدية للصحفي الخليجي.

استطاعت الجزيرة من خلال إطلاق قنوات ومنصات ناطقة بلغات مختلفة كالإنجليزية والبلقانية والتركية، أن تصل إلى رقعة أكبر. ومع إطلاق «الجزيرة بلس» بنسختيها العربية والإنجليزية، حققت حضورا قويا على منصات الإعلام الاجتماعي، لكن ظل السؤال المطروح عن المدى الذي يمكن أن يصله المحتوى وينافس به المنصات الأخرى.. عن المساحة الفاصلة بين الرأي والخبر.

لقد خرجت الجزيرة -ولعلها لم تخرج بعدُ بشكل كامل- من تبعات الجدل القائم على تغطيتها لثورات الربيع العربي، وفي الجعبة أسئلة كثيرة: هل تعاملت القناة مع كل الثورات بذات القدر من المسافة؟ لماذا انطلقت قناة بحجم «الجزيرة مباشر مصر» قبل أن تغلق؟ ما الذي يمكن أن تفعله «الجزيرة» مع توفر صيغ محلية لمنصات إعلامية أضحت تناقش كل الخطوط الحمراء في بلدانها؟ ماذا عن جيل الشباب الذي بات يطلب محتوى أقلّ رصانة -أو أكثر رشاقة- مما اعتادت عليه الجزيرة وأكثر تنوعا؟ هل عليها أن تتبعه وتقدم له ما يريد؟

إن الراصد والمتابع لتأثير الجزيرة، يدرك أن ثمة ظاهرة قد تجاوزت الحالة، هذه الظاهرة (الجزيرة) كتبت فيها دراسات أكاديمية ورسائل دكتوراه وماجستير تربو عن المئتين، وفي هذا مؤشر لا تخطئه عين على الحالة التي وصلتها هذه الظاهرة.

تُرى هل بات المواطن العربي اليوم وبعد عقدين من ظهور الجزيرة أكثر حرية في التعبير عن آرائه؟ سواء أكان الجواب سلبا أم إيجابا فإن ذلك مدعاة لاستمرار الجزيرة في تقديم منتجها الإخباري، بأشكال أكثر إبداعية، عبر منصات متنوعة، لأجيال مختلفة، وضمن ميزانية أقل، مع الأخذ بعين الاعتبار دخول منافسين كثر إلى هذه الصناعة، وتلك تحديات لا تقلّ عن التحديات السياسية والمهنية التي واجهتها القناة خلال عقدين ونجحت في تجاوزها، فلا يزال الناس يشترون شاشات تلفاز بحجم أكبر ويستهلكون صناعة الأخبار ومشاهدتها والتفاعل معها بوقت أكبر كذلك.

كيب تاون.. حراك شعبي قديم ولغة صحفية جديدة

غاريث فان نيكرك

خلال احتجاجات الطلبة في جنوب أفريقيا في أبريل/نيسان 2015، ظهرت الكثير من التعبيرات والمصطلحات الجديدة التي دار جدال بشأن إدخالها كما هي على غرف الأخبار أو تحويلها للغة رسمية فصحى.

سيذكرُ الناس أحداث التاسع من أبريل/نيسان 2015 باعتبارها نقطة فارقة في مسيرة الكفاح نحو ترسيخ المساواة في المرحلة التي تلت سقوط نظام الفصل العنصري (الأبارتايد) في جنوب أفريقيا. لقد شهد ذلك الخميس المحتدم إزالة تمثال رمز الإمبريالية الإنجليزية البغيض سيسل جون رودس من حرم جامعة كيب تاون بعد مرور 120 سنة على تولّيه منصب رئيس الوزراء في جنوب أفريقيا. لقد أزيل هذا التمثال عقب أسابيع من بدء سلسلة من المظاهرات التي دعت إليها مجموعات من الطلبة والناشطين يدعون أنفسهم «Fallists» بهدف إسقاط مظاهر الاستعمار في المناهج الجامعيّة.

تلك الصورة التي ظهر فيها مئات الشباب السود الغاضبين وهم يهتفون بحماسة بالغة حين أزالوا تمثال رودس ستبقى في الذاكرة بوصفها الصورة الأكثر رمزيّة في دولة جنوب أفريقيا ومسيرتها الديمقراطية التي انطلقت منذ 21 عاماً. لقد كانت تغطيتي لتلك القصّة تجربة لا تنسى في غرفة الأخبار، حين كنت مراسلاً شاباً أتتبع حركة المظاهرات في محافظات جنوب أفريقيا التسعة، وتلك كانت خطواتي الأولى في تغطية أحداث مثل هذه.

كنت أراقب من مكتبي انطلاق حملات على وسائل التواصل الاجتماعي انتشرت فيها وسوم عديدة بعضها يدعو لسقوط الرسوم الجامعيّة (#feesmustfall). وقد كانت تلك الوسوم طريقة فعالة لتتبع ما يفعله الطلاب، حين توجهوا في البداية إلى البرلمان ثم إلى بعض المباني الحكومية ثم انطلقوا في مظاهرات في شوارع المدن المختلفة. وقد كان الناس جميعهم يتابعون آخر التحديثات بمتابعة بعض الحسابات على وسائل التواصل الاجتماعي التي كانت ترفع الصور ومقاطع الفيديو التي تعرض مشاهد لطلاب في مظاهرات سلميّة يتعرّضون للضرب من قبل رجال الشرطة بالإضافة إلى توثيق حملات اعتقال كبيرة أو طرد للطلاب من أماكن دراستهم.

لقد كانت الخبرة التي لديّ في التعامل مع هذا النوع من الأحداث السريعة والمتقلّبة أقلّ بكثير من المطلوب، ولكن كان هنالك نقصٌ في الكادر في غرفة الأخبار، وكان على الجميع أن يساهم في تغطية الجانب الذي بوسعه العمل عليه. وهكذا اعتمدت على تجربتي كمراسل في الشؤون الثقافية للحديث مع بعض الفنانين غير المنتمين بالضرورة للحراك الطلابيّ، وقد كان ذلك في غاية الأهمّية لأني تمكنت من التعرف على آراء مختلفة بخصوص الحراك والحفاظ على مسافة شكليّة من الحالة العاطفيّة التي سادت في تلك الفترة.

لقد تحدثت إلى فنانين كانوا يصّورون الأحداث الجارية ويقدّمون للقراء والمتابعين صورةً مختلفة عن تلك التي يقدّمها المصورون المحترفون. أمّا أمناء المتاحف فكشفوا عن أراشيف ضخمة لتماثيل أخرى تذكّر بمرحلة الفصل العنصري باتت الآن تحت الأرض. كما التقيت ببعض المبدعين في الفنون الأدائية، والذين رفضوا الحديث إلى الصحافة خشية أن يساء فهم تصريحاتهم، ولكنهم سمحوا لي بالدخول إلى أماكن عملهم كي أتمكّن من توضيح مواقفهم بشكل دقيق.

لقد كانت أحداث تلك الفترة كفيلة بنقل شحنة من المسؤولية للجيل التالي من الشباب في جنوب أفريقيا -وهو الجيل الذي أنتمي إليه- تجاه القضايا التي يعيشونها.

لقد قال الجيل الجديد كلمته ليوضّح أنّ الفصل العنصري لم ينته بعدُ تماماً. لم تنطفئ جذوة هذه الطاقة وهذا النفس الطويل، وقد كان ذلك واضحاً في حراك الطلبة، وهي كذلك أشدّ وضوحاً في حياة الناس العاديين في جنوب أفريقيا الذين تأثروا بشجاعة أولئك الشباب الذين يحاولون تغيير واقع من لا يزالون يعانون من آثار سنوات طويلة من الاستبداد الاستعماري.

قرَّر أطفال المدارس اليوم رفض بعض القواعد البالية وخرجوا في مظاهرة خاصّة بهم يطالبون فيها بحقّهم بتصفيف شعرهم بالطريقة الطبيعية التي تلائمهم ورفض التقيّد بتلك القواعد التي تسري على الطلاب البيض. أمّا العمّال فصاروا يطالبون بحقّهم بالمعاملة المنصفة، وأصحاب البيوت يطالبون بظروف معيشة مشابهة للمناطق التي كانت في السابق للبيض، حتّى أنّ الحملات الانتخابيّة قد باتت مؤخراً تعتمد على هذا الخطاب لكسب أصوات جديدة من الناخبين الذين يبحثون عمّن يمثّل مطالبهم.

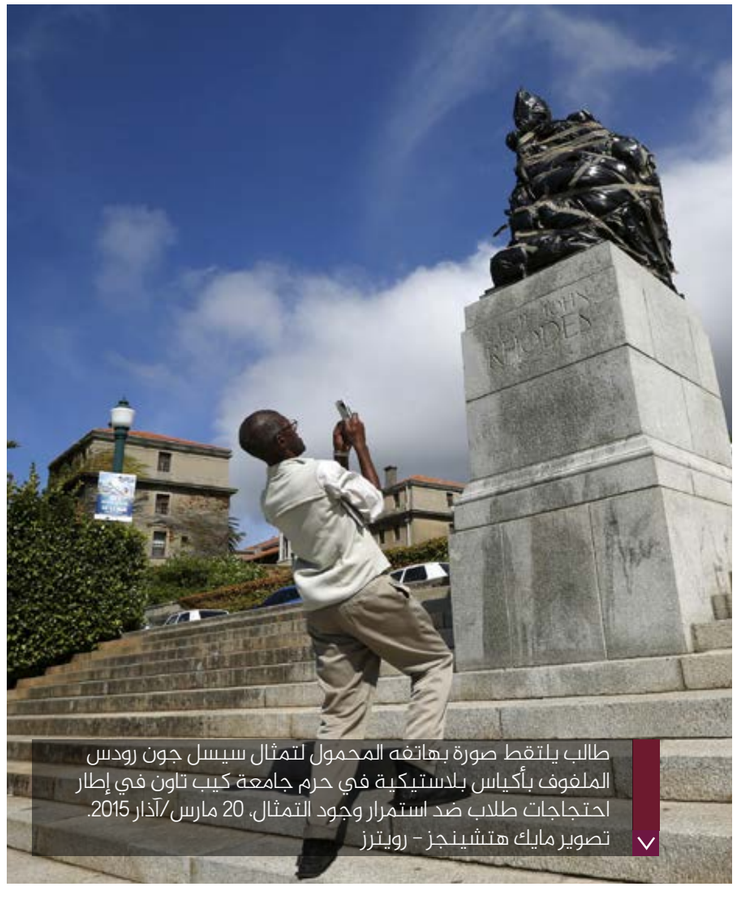

طالب يلتقط صورة بهاتفه المحمول لتمثال سيسل جون رودس الملفوف بأكياس بلاستيكية في حرم جامعة كيب تاون في إطار احتجاجات طلاب ضد استمرار وجود التمثال. 20 مارس/آذار 2015. تصوير مايك هتشينجز - رويترز

هذه اللغة الجديدة التي نشأت من رحم الاحتجاجات والمظاهرات لا تفتأ تتطوّر، مع أنّها قلّما تحظى بتوافق تامّ عليها بما أنّها تخالف اللغة الرسميّة والسائدة. صحيح أنّ هذا الشكلَ من اللغة ليس وليد هذه الفترة، إلا أنّه قد وجد مكاناً له في لغة التواصل بين شباب هذه الحركات، وهي لغة تشبه مستخدميها، وهذا ما يلاحظه من يحاول فهم هذه اللغة من خارج الحركة. بعض هذه العبارات والكلمات قديمة مقتبسة من أغانٍ احتجاجية اشتهرت في الثمانينات والتسعينات، اعتاد المتظاهرون الشباب سماعها من آبائهم. وبعضها تعبيرات حديثة ظهرت في وسائل التواصل الاجتماعي والحوارات التي تدور بين الشباب خارج المحاضرات الجامعية.

كان من الصعب عليّ الإحاطة بكل ذلك نظراً لعدم انخراطي في هذا الحراك. ومعظم المحتوى الذي كنا ننتجه في تلك الفترة كان يُستخدم من قبل طلاب الجامعات في محاولة لمعرفة ما يجرى من حولهم. كان الحديث مع هؤلاء الطلبة بلغتهم كفيلاً ببناء شيء من الثقة بيننا، تماماً كما يحدث معك حين تتحدث لشخص غريب بلغته الأم. لقد كان يعني ذلك أنّنا نطلب رأيهم بالطريقة التي يفضّلونها، بعيداً عن عنف القيود اللغوية التي تفرضها عليهم وسائل الإعلام العامّة. ومع ذلك واجهت هذه المنهجية بعض المقاومة.

لقد كان المحررون المساعدون -حسب تجربتي على الأقل- يجدون صعوبة في تجاوز خوفهم من غير المألوف والسائد من العبارات والكلمات. فكانت الكلمات غير المتوافقة مع «الفصيح» وفق سياسة التحرير اللغوية تغيّر إلى كلمات أكثر فصاحة، وحين أكتب عنواناً باستخدام اقتباس من خطاب أحد الطلبة، يجري على الفور تغيير هذا العنوان، بحجّة لزوم أن يكون العنوان موجهاً لجمهور أوسع من القراء، وهو جمهور لا يستسيغ على الأغلب هذا اللون اللغوي الجديد. كان يصعب عليّ التعبير عن انزعاجي، ولكنّي وبتشجيع بعض الزملاء الأكثر مرونة كنت أسقط تلك التصحيحات وألتزم بما كتبته في البداية.

لاحظتُ كيف دخلت بعض هذه الكلمات لغة الجمهور الإلكتروني بعد انتشار تلك القصص الصحفية. كانت تلك الكلمات تستخدم للحديث مع الطلبة، ومع أصدقائهم. كما أصبحت تظهر مع بعض الرموز (الإيموجي) كإيموجي النار حتى أنّ هذه الرموز استُخدمت في بعض الأحيان مكان الكلمات الجديدة. كما تُرجمت بعض الكلمات الجديدة التي سرت بين الشباب إلى اللغات الإحدى عشرة الرسمية المستخدمة في مختلف أرجاء جنوب أفريقيا.

صارت هذه الكلمات الآن أكثر أهمّية وبروزاً، وبات استخدامها ملائماً ومقبولاً حتى في غرف الأخبار، حتّى أنّ بعضها أضيف إلى القواميس الإنجليزية الرسميّة. صحيح أنّ بعض المحررين لا يزالون من حين لآخر يصرون على تغييرها إلى كلمات أكثر رسميّة، ولكن هنالك تحدّ مستمرّ لذلك بين الصحفيين الشباب يزداد صعوداً مع ازدياد أعداد الخريجين الجدد من الصحفيين الذين يبحثون عن صوتهم والتعبير عنه.

هذا الشكل من التطور السريع يحافظ على أهمية الصحيفة للجماهير حتّى في عصر الإنترنت. أما بالنسبة للمراسل، فهذا الجانب يزيد من المتعة ومستوى التحدي في العمل بالإضافة إلى ذلك الشعور بالأمل في أن يرى المراسل نفسه وهو ينقل القصة بصوته الذي يتطور بالوتيرة نفسها التي تتطور بها بيئة الأخبار اليوم، وهو كذلك قبس من أمل في وقت غير مبشر كثيراً في عالم صناعة الأخبار.

طالبة تضع ملصقا على فمها ينادي بإزالة تمثال رمز الإمبريالية الإنجليزية سيسيل جون رودس من حرم جامعة كيب تاون. 20 مارس/آذار 2015. رويترز

كيف تكتب قصة مؤثرة في إنستغرام؟

نيل شيا

ترجم هذا المقال بالتعاون مع «نيمان ريبورتس» - جامعة هارفارد.

في نهاية يونيو/حزيران الماضي كنت على سفر مع المصورة لينزي أداريو في أرجاء صقلية، أثناء عملنا على قصّة عن المهاجرين القادمين من أفريقيا إلى أوروبا. وخلال تلك الرحلة عبر الجزيرة، شرعنا في الحديث عن الكتابة، وتحدثت بالتحديد عن الطريقة التي سأسلكها في العمل على المقال الطويل الذي اتفقنا على كتابته. كانت لينزي -وهي مصورة حائزة على جوائز عالميّة- قد نشرت من فترة قصيرة كتاباً يشتمل على مذكراتها الشخصية، وكانت لذلك تدرك جيداً تلك المتعة الممتزجة بالصعوبة في ترجمة الأفكار والصور إلى كلمات.. مازحتها قائلاً إنني لا أفضّل أن أكتب مواد طويلة، ثم أخبرتها أن أكثر ما كنت أستمتع به ويرضيني من الكتابة هو فقرات صغيرة جداً كنت أنشرها على موقع إنستغرام.

دُهشت لينزي وقالت: «وهل حقاً تستطيع الكتابة على إنستغرام؟».

فضحكتْ وأمسكت واحداً من هواتفها، وبحثت حتى وصلت إلى تطبيق إنستغرام ثم قالت: «كنت أعتقد أن هذا لتصوير الطعام والقطط فقط».

صحيحٌ أنّ إنستغرام لا يبدو المكان الأمثل الذي يرتاده الكتّاب، فالوتيرة فيه سريعة، كما أن صور القطط فيه كثيرة، عدا عن صور «السيلفي» والأحذية وأكواب القهوة الجميلة. كما أن المساحة المخصصة للكتابة صغيرة أيضاً، خاصة بالنسبة لأولئك الذين سعوا كثيراً للتمكن من الكتابة الطويلة ذات المحتوى المكثف. لكن وبعد أن بدأت تجربة الكتابة ضمن الحدود الإبداعية التي يفرضها التطبيق، حدث معي أمر غريب، إذ وجدت أني بالفعل أحب الكتابة القصيرة.

تمكنت بعد حين من فهم التجربة في إنستغرام، حيث كان التدفق المستمر للصور وصناديق الكتابة تحتها تقدّم هندسة بديلة لكتابة القصّة تستلزم مني أشياء جديدة. صحيح أن القصة تكون أقصر بطبيعة الحال، ولكن هذا التطبيق يستلزم مراعاة الصور بشكل معمق، بالإضافة إلى سبر الطرق الغنية والدقيقة التي تتفاعل بها الكلمات والصور معاً. ومع شيء من الوقت أدركت أن إنستغرام أداة فعّالة لكتابة القصص، وإن كانت هذه من سماته غير المعروفة والأقل استخداماً في مجتمع إنستغرام. لاحظ أن إنستغرام قد أصبح أحد أهم المجلات الرقمية العامة والناجحة على مستوى العالم، ففيه أكثر من 300 مليون مستخدم شهريا، ويُرفع عليه قرابة 70 مليون صورة يومياً. كل صورة من هذه الصور تمثل صفحة أو حكاية أو إضاءة على فكرة ما تتجلى أمامنا على الشاشة من بقعة ما في هذا العالم. لقد رأيتم مستخدمي هذا التطبيق، إنهم عادة من الشباب الذين يحبون المشاركة وتراهم ينظرون في هواتفهم في محطات المترو والحافلات وعلى جوانب الطريق، ينظرون إلى سيل الصور التي

حين شعرتْ أنّه ليس ثمّة أمل، قفلتْ راجعة نحو منزلها، تبحث عن علاج في التعاويذ والصلوات القديمة، وفي تلك الأكفّ من الطين الداكن اللزج الذي يعتقد أهلها أنه قادر على التهام المرض وشفائه.. لقد وقفت تتحدّى الأرواح الشريرة التي اعتقدت أنها تسكنها، وقالت إنها لا تخشى شيئا. وردني أمس خبر وفاة سيتيل، وقد ماتت من مرض لم تعرف اسمه، في بيتها بتلك القرية على ضفة بحيرة توركانا الطويلة والحارة.. هذا تأبين ضعيف.. لم أعرفها جيداً، ولم تترك خلفها سوى ابنة لها حامل، وأمها وأم زوجها.. قد يكون لديها أقارب غيرهم، ولكن عائلتها كانت صغيرة على أية حال.. لقد أمضيت أنا وراندي بضع ساعات وحسب في رفقة سيتيل، حين حدثتنا عن قصتها وشاهدناها وهي تواجه المرض.. القدرة على الاختيار ليست واردة هنا، فقد كان لدى سيتيل خيارات محدودة جداً.. ما أعرفه أنّها كانت صبورة وكريمة معنا ونحن نحمل دفاترنا وكاميراتنا خلال ما تبيّن أنها الأسابيع الأخيرة من حياتها.. كان جلياً أن سيتيل تعدّنا غرباء، أو مجانين حتى.. كانت أحياناً تنظر إلينا شزراً ونحن نتطفل ونكتب ونلتقط الصور، ولكنها تحملت ثقلنا بلا شكوى وأجابت كل أسئلتنا.. لقد بدت لي شجاعة، مع أنها قد لا تقول ذلك عن نفسها. كما أنها لم تنتظر الشكر منا، فليس في لغة قبيلة داساناش كلمة لذلك أصلاً، وحين يضطر الشخص هناك للشكر فإنّه يقول «واغ إيكونودو» أي «ليرعاك الله». نحن ممتنّون لمساعدة سيتيل، لصدقها معنا وصبرها علينا.. كنا سنخسر كثيراً لو لم نستمع إلى قصتها.

تردُهم على هواتفهم. هذا الانغماس الحاصل لا يأتي من فراغ، وهذا الجمهور العريض للتطبيق من كافة أرجاء العالم يجتمع حول فكرة واحدة: في كل صورة حكاية.

والواقع الآن أن هذه المساحة قد تُركت للمصورين. فمنذ انطلاقة التطبيق عام 2010، بدأ المصورون الصحفيون يستخدمونه بفعالية كبيرة، حيث يعرضون صورا غير منشورة، ويبحثون في أراشيف الصور وينشرون معلومات عن مشاريع إبداعية يعملون عليها. أما الكتاب فلم يقتربوا كثيرا من إنستغرام ولم يستفيدوا منه كمنصة لكتابة القصص ونشرها. وثمة أسباب عديدة لهذه الظاهرة، ولعل السبب الأهم هو أن كتابة نص صغير ليس بالأمر السهل.

لكن بالنسبة لأولئك الذين يخوضون التجربة في هذا التطبيق سيجدون أن سرد القصص فيه أمرٌ في غاية المتعة يمتاز به إنستغرام مع أنه لم يوضع لهذه الغاية. فهذا التطبيق حيوي ومرن ورائع بشكل

يفوق التوقعات. وباستخدام مصطلحات فنية يمكن القول إن إنستغرام أكثر ديمقراطية من الفيسبوك الذي يخضع لقدر كبير من التنقيح، كما أنه أقل تقييداً من تويتر، وأكثر ثباتا من سناب شات. ولعل الأهم من جميع ذلك في نظري هو أن إنستغرام يوفر مساحة إبداعية يمكن من خلالها مشاركة الأفكار والآراء بطريقة جميلة مع الجميع، وتجنب خسارة هذه الأصوات أو ضياعها أو العبث بها عند اندماجها مع العنصر الصحفي.

لقد تحولتُ إلى إنستغرام في أبريل/نيسان 2014، حين سافرت إلى بحيرة توركانا بكينيا في قصة صحفية لصالح ناشيونال جيوغرافيك. كان المحرر الذي عملت معه -واسمه بيتر غوين- قد شجعني على استخدام هذا التطبيق لنشر مقاطع من عملي، وقد راودني في البداية بعض التخوف من ذلك، فأنا لست مصورا، ولم يكن لدي حتى ذلك الوقت حساب في إنستغرام. وما كنت أراه على هذا التطبيق في هواتف أصدقائي بدا لي شبيهاً بفيسبوك-لايت. وعرفت أن

حين كنا شبابا، كانت ضفة البحيرة تمتلئ بالأعشاب، وهناك كنا نصيد أفراس البحر، وكانت أعدادها كبيرة حينها.. تظهر بين الأعشاب الخضراء الطويلة. أحياناً كنا نذهب في مجموعة من عشرين رجلاً، كلٌ منّا يحمل حربة، واعتدنا على ربط حبال طويلة برأس الحراب وتثبيتها بمنطقة الخصر، كأنّها أحزمة، ثم نتعقب أفراس النهر بهدوء وسكون. فرس النهر حيوان ذكي وشديد جداً، حتّى الشعر حول فمه يمكن أن يجرح كأنّه نصل سكين حاد.. يقوم الرجل الأول بالتقدم بحذر نحو فرس النهر ليطعنه ويغرز الحربة في جسده، ثم يأخذ الحبل عن وسطه ويبدأ السحب.. هذه خطوة مهمة جداً. لو كنتَ بطيئاً، ولم تأخذ الحبل عن خصرك بسرعة كافية، فإنّ فرس النهر قد يجرّك بعيداً وهو يحاول الهرب.. هذا هو الجزء الأكثر خطورة. حين يغرز الرجل الأول حربته في فرس النهر، يتقدّم الرجال الآخرون ويغرزون حرابهم، ثم نسحب حبالنا ونجرّ الحيوان نحونا.. كان كل منا يأخذ نصيبه من اللحم، ولكنّ النصيب والشرف الأكبر يكون دوماً للرجل الأول، إذ يعود إلى بيته بالأذنين والذيل، وتغنّي النساء اعتزازاً به وهنّ ذاهبات لاستقباله عند مدخل القرية. كان فرس النهر فيما مضى جزءاً أساسياً من ثقافتنا.. كان قتله أشبه بقتل أسد أو فيل. كان أحدنا يشعر بأنّه بطل. نعم، أشتاق إلى تلك الأيام، وأحبها كثيراً، أما اليوم فلا ترى أفراس النهر هنا أبداً.. كانت آخر مرة رأيت فيها فرس النهر في التسعينيات، وقام أحدهم حينها بقتله بسلاح كلاشنيكوف. أمّا نحن فكانت طريقتنا مختلفة.. نحن الاثنان آخر من يتذكّر الصيد بالطريقة القديمة.

إنستغرام يتيح كتابة 2002 حرف (قرابة 360 كلمة حسب تجربتي) مع كل صورة منشورة، وكنت أشك في أنه يمكن التعبير عن شيء ما -بشكل كاف- بهذا العدد من الكلمات.

لكن بيتر واصل إقناعي، وأطلعني على بعض ما كتبه في إنستغرام عن رحلاته إلى رواندا وجمهورية أفريقيا الوسطى، وقد أعجبني ذلك، فما رأيت لم يكن بعض صور «السيلفي»، بل لم يكن حتى شخصياً.. كانت تلك المنشورات توثيقا للحظات صغيرة غنية بالتفاصيل وسهلة القراءة وفيها إشارة إلى قدر كبير من الإمكانات. في الوقت ذاته كنت قد شرعت في الاعتماد على التصوير بهاتف آيفون أثناء إعداد تقاريري، إذ كنت ألتقط صورة شخصية لكل شخص أتحدث معه بعدما أسجّل رقم هاتفه وأكتب اسمه بالطريقة الصحيحة. وفي هذا السياق -أي تشجيع بيتر والصور الجديدة التي التقطتها- اقتنعت أن بإمكاني على الأقل كتابة لمحات عن بعض الأشخاص الذين ألتقيهم، وقررت أن يكون ذلك بمثابة تجربة أولية، ولم أكن أتوقع أنها ستستمر.

لقد كانت كتاباتي الأولى في إنستغرام حين كنت قرب بحيرة توركانا بعيدة عن أن تكون قصة صحفية حقيقية. فمعظم ما كنت أنشره هو بعض الصور الجميلة التي أكتب عليها تعليقات بسيطة سريعة. وفي مكان ليس بعيدا عن مكان عملي -وكنت أعمل بالمناسبة على بعد مئات الكيلومترات عن أقرب طريق معبّد- التقيت بصياد نجا من هجمة تمساح، وقد أصابتني قصته بالذهول. كان الرجل يجهز شبكة صيده لما هاجمه التمساح في تلك المياه العكرة، ثم حمله بعيدا، وفقد الرجل وعيه حين شعر أنه ينتقل إلى عالم آخر، لعله الموت. كان يشعر بأنياب تنغرز في جسده، لكنه في الوقت ذاته كان يسمع أصواتا جميلة في أذنيه. وقبل أن يُجهز عليه التمساح استعاد الرجل وعيه، وتذكر ترنيمة شعبية قديمة. غرز الرجل أصابعه في عيني التمساح، فأطلقه من بين فكيه، وهرب ذلك الرجل وهو ينزف نحو اليابسة.

حين نُقل الرجل إلى العيادة المحلية، كان يعاني من هلوسات وكوابيس رهيبة نتيجة اضطراب ما بعد الصدمة من هجمة التمساح.

قال لي الرجل: «كنت أراه في أحلامي، يأتي إلي من الباب ليقتلني». كما أخبرني أنه حتى الآن لا يمتلك الجرأة على العودة إلى المياه.

أمضيت بضع ساعات أتحدث إلى الرجل، وأرسم صورا للمكان الذي غرز فيه التمساح فكّيه في فخذه. من وجهة نظر الكاتب، كانت القصة غاية في العجب، وهي تجربة كنت أود لو أستطيع مشاركتها مع الآخرين. ولكني كنت أدرك صعوبة أن أدرج هذه القصة في المادة النهائية التي سأقدمها للمجلة. لقد كانت صغيرة جدا، وكانت ستضيع على الأغلب في المادة الكبيرة والمعقدة التي أعدها حول بعض القضايا البيئية والنزاعات والتغيرات الثقافية. لو سمعت بهذه القصة قبل سنة لاحتفظت بها في دفتر ملاحظاتي وحسب، ولكني شعرت الآن برغبة في إخبار الآخرين عنها، ووجدت فجأة أن إنستغرام هو الوسيلة الأمثل لذلك. طلبت من الرجل بعد انتهاء المقابلة أن يجلس لأصوره بهاتفي أمام كوخ الطين الذين شربنا فيه صودا ساخنة.. التقطت بعض الصور تحت شمس الظهيرة الحارقة، وقررت أن تكون الصورة بالأبيض والأسود بسبب درجة التباين غير المناسبة. كتبت قصة الرجل مساء ذلك اليوم، وحرصت على عدم الابتعاد عن روايته الشخصية. لم أوضح سبب نشري للقصة ولم أذهب بعيداً للحديث عن إحصاءات حول ضحايا هجمات التماسيح في شرق إفريقيا، فالذي يتابعني يعرف من منشوراتي السابقة أني أعمل في كينيا مع ناشيونال جيوغرافيك، وأي شخص يريد معرفة شيء عني بوسعه أن يرجع إلى مقالاتي المطولة.

لم أرغب كذلك في حشو قصته بأي معلومات جانبية أخرى، وقررت أن أكتب ملتزماً بمزاج وإيقاع تلك الحادثة التي غيرت حياة الرجل، كما اختصرتها لتكون في 269 كلمة. استخدمت تقنيات بسيطة في استهلال القصة وتطورها والتعليقات المشوقة وغير ذلك من التقنيات التي تعلمتها قبل وقت طويل في غرف الأخبار. وكنت أتفحص كل كلمة لأرى إن كانت تستحق أن تبقى في النص، وكثيرا ما نقرت على زر الحذف في هذه العملية.

حتى الآن تلقت هذه القصة الصغيرة التي نشرتها على إنستغرام 500 إعجاب (وأكثر من 1300 إعجاب لنسخة ثانية أعدت نشرها لاحقا). وقد علق أكثر من 70 متابعا على هذه الكتابات. أعتقد أن الإعجاب والتعليق مقياس للنجاح على هذا التطبيق، وهذا ما يثير شيئا من الإدمان والغموض في آن معاً، ولكن الأرقام في حالتي أنا صغيرة نسبيا. كما أن أعداد المعجبين لا يعني أنهم جميعهم قرأوا القصة، رغم أني شبه متأكد من أن معظمهم قرأ المكتوب تحت الصور. النقطة المهمة هنا أنني تدربت لسنوات عديدة كي أكون قادرا على نشر قصة كقصة هذا الرجل. فبعد أن نشرت الصورة مع القصة، وصارت التعليقات تردني تترى كأنها قطعُ من النقود، ومن أناس لا أعرفهم، شعرت أني حققت بشكل من الأشكال أحد الأهداف التي كنت أطمح إليها في عملي في الصحافة؛ أن أكون صوتا لمن لا صوت لهم، وقد جعلني هذا الشعور متعطشا لكتابة المزيد. حاولت في فترة عملي الميداني وفي الأسابيع التي تلت ذلك أن

أجرب العمل على عدة أشكال وأصوات وتصاميم لكتابة القصص. بدأت أرى في إنستغرام شكلا متميزا عن العمل الوثائقي الذي أقوم به ولكنه مكمّل له أيضا.. لقد كنت أمارس شكلاً من «الصحافة المتأنّية» حسب التعبير الشائع اليوم، أو قد كان ما أقوم به نتيجة جلسات طويلة كنت أحظى بها، حيث أستمع إلى الآخرين وأدون الملاحظات.

كتبت في قصتين عن التوتر الكبير الحاصل في قبيلة داساناش حيث تسود بين أفراد هذه القبيلة ممارسة ختان البنات.. قارنت بين قصص ثلاث نساء مررن بتجربة الختان، واحدة منهنّ كبيرة في السن والأخريان صغيرتان. شرحت لي المرأة بكل بوضوح أي الأجزاء التي ختنت والأسباب التي تدعو لذلك.. لقد كانت هذه الممارسة في نظرها مرتبطة بمصير القبيلة. أما الصغيرتان فأخبرتاني كيف أنهما كانتا تعملان خفية إزاء هذه الممارسة، لجعلها أكثر سلامةً، أو للوصول إن أمكن إلى الاستغناء عنها تماماً.
أخبرتني إحدى الفتاتين -واسمها كالي- أن الطرق القديمة تكون جيدة أحياناً، ولكنها تكون خطيرة في أحيان أخرى. وأضافت: «لقد رأيت ما حصل لبعض النساء، وقررت أن أفعل هذا الأمر بالطريقة الأفضل».

لم يخطر لي قط أن أكتب عن هذا الموضوع، كما لم أتخيل أن أي امرأة قد تحدثني بصراحة في هذا الشأن. ولكن هذا ما حدث فعلاً، وإليكم بعض الأصوات التي شعرت بضرورة إيصالها إلى الآخرين.. لقد اخترت الكتابة بأسلوب مباشر، محاولا قدر الإمكان الحفاظ على وتيرة النقاش الدائر في المجتمع كما لاحظته، إذا لم يكن حوار طرشان، وليس فيه توجيه اتهامات ولا تقديم أحكام أخلاقية.

لقد كانت هذه القصة أشبه بخطاب موازٍ ينظر إلى هذه القضية كغيرها من القضايا الخلافية التي يكون مصيرها إلى الزوال مع موت الجيل القديم وانتهاء سلطتهم الروحية في المجتمع. لكن هل شرحت القصة كل شيء؟ وهل ثمة قصة تستطيع أصلاً الحديث عن كل شيء؟ إن ما حققته هذه القصص بمثالية واتزان هو ما كنت أسعى إليه من تسليط شيء من الضوء على قضية ما، وقد قرأها عددٌ كافٍ من الناس وشعرت على الأقل أنني لم أكن أتحدث إلى نفسي.

كتبت قصصاً أخرى بعد ذلك بضمير المخاطَب أو بضمير الغائب. نشرت مرة صورة لأفعى الكوبرا وهي تنفث سمها، وتناولت القصة على شكل رسالة للأفعى، ووظفت ذلك لوصف تلك اللحظة في حياة الصبية الذين يرعون الماشية والذين تجولت معهم كثيراً، حين يهربون فزعا عند رؤية الأفعى ثم يعودون لملاحقتها، ويهاجمونها كما الفرسان في فيلم «مونتي بايثون والكأس المقدسة». وفي قصة أخرى اعتمدت أسلوب الحكاية بضمير المتكلم، وكتبت بصوت رجل كهل وهو يحكي عن وقائع اصطياد حيوان فرس النهر قبل زمن بعيد. وفي تلك القصة كشفت عن طريقتي في الكتابة في تلك اللحظة، وهي أشبه بأن أسلم قلمي ودفتري لأولئك الصيادين الشيوخ -القلّة الباقية من هذا الجيل- ليتحدّثوا عن ذكرياتهم كما يحلو لهم.

أذكر قصتين من سلسلة القصص القائمة على الصورة هما الأكثر نجاحاً، الأولى عن امرأة تعاني من مرض عضال اسمها سيتيل، وقد سمحت لنا بمراقبة طرق العلاج الروحية الخاصة جدا التي كان تقدمها لها امرأة تمارس الطب الشعبي. لقد ذهبنا معها عدة مرات أنا وصديقي راندي أولسن -وهو مصور يعمل مع ناشيونال جيوغرافيك- إلى أحد أطراف البحيرة، وشاهدناها مع تلك الطبيبة التي تدعى غالتي، تخوضان في المياه الضحلة لتمسح المرأة جسدها بالطين. وبعد غسل جسدها من الطين، كانت تعتقد أن تلك الترسبات الغنية الداكنة التي تذهب مع الماء ستطرد المرض وتسترجع عافية المريض.

حين علمت بوفاة سيتيل بعد ذلك بأسابيع قليلة، شعرتُ بأسى كبير.. لقد حاولنا مساعدتها بالغذاء والدواء، وحاولنا أن نبحث لها عن عيادة لإحدى البعثات المحلية. ولكن كل ذلك لم يكن ليساعد سيتيل بعد أن تدهورت حالتها. صحيح أننا لم نكن نعرفها جيداً، ولكن في تلك اللحظة وفي ذلك المكان راودني شعور مختلف. أردت الكتابة عنها مجدداً، وكان لديّ في تلك الفترة -بعد مضي أربعة أسابيع على دخولي عالم إنستغرام- عدد متزايد من المتابعين. ولأنهم كانوا قد قرؤوا عن قصّة علاجها، ظننت أنهم ربما سيرغبون في معرفة قصة موتها. فكتبت تأبيناً قصيراً عن سيتيل ونشرته مع واحدة من آخر الصور التي التقطتها لها.
كتبت تحت تلك الصورة «حين شعرتُ أنّه ليس ثمّة أمل، قفلتْ راجعة نحو منزلها، تبحث عن علاج في التعاويذ والصلوات القديمة، وفي تلك الأكف من الطين الداكن اللزج الذي يعتقد أهلها أنه قادر على التهام المرض وشفائه.. لقد وقفت تتحدّى الأرواح الشريرة التي اعتقدت أنها تسكنها، وقالت إنها لا تخشى شيئا».

اطّلع على تلك القصّة 700 متابع على الأقل.. ليس هذا بالعدد الكبير، ولكنه أكبر على الأقل من عدد الناس الذين كانوا يعرفونها قبل موتها، وأكبر ربما من عدد الذين قرؤوا تأبين جدي، الذي توفي قبل سفري إلى كينيا بأيام قليلة. حين تجلّت هذه الفكرة في ذهني، توقفت عن الاهتمام كثيراً بالأرقام.

أنا طبيب الأمل الأخير، يأتيني الناس حين لا يصلح معهم أي دواء.. يأتون بخوف وأمل، وأنا أداويهم بالقهوة والدم والدخان.. أعرف كيف أتعامل مع الأرواح التي تسبب العلل.
أنا دايةٌ أيضاً، نصف أطفال هذه القرية رأوا وجهي لحظة مجيئهم إلى العالم.. ستجد واحدة مثلي في كل قرية.. نحن نتعلم من أمهاتنا وخالاتنا ونتعلم من الأرواح.. إننا نتعلم كيف نشعر بموضع العلّة بأيدينا، ونحن نسمع ونرى أشياء لا يدركها غيرنا.. هذا أمرٌ خاص بالنساء. ليست لدينا أي مشكلة مع البعثات الطبية التي تأتي هنا، وإن كان بعضها يأتي أحياناً ليخبرني بأن عليّ التوقف عن الحديث مع الأرواح، وأن أنصح الجميع بالذهاب إلى العيادة. آه! لكن العيادة بعيدة، وليس فيها سوى عدد قليل من الممرضات، وهن لا يستطعن علاج كل الأمراض. انظر إلى سيتيل، تلك المرأة التي رأيتها معي.. كانت مريضة جداً.. أعطتها الممرضة بعض الأدوية والحقن، ولكنها لم تتعاف.. بدأ أراد عائلتها يبتعدون عنها خشية أن ينتقل مرضها إليهم، ثم أحضروها إليّ.. لقد كانت تعاني من ظل الأرواح الشريرة.. أخذتها أربع مرات إلى البحيرة لأغسلها وأضع الطين عليها.. غسلتها أربع مرات من الطين وأمرت تلك الأرواح بالرحيل عنها.. فعلت ذلك أربعاً لأنّ هذا الرقم مقدّس عندنا، وهو عدد الحلمات على ضرع البقرة.. لكن الأرواح كانت أقوى، ولم يفلح العلاج. حاولنا مرة أخرى، وأنت تعرف ما حدث بعد ذلك.. لا أستطيع أن أقول إنّ الطريقة القديمة لم تجدِ نفعاً، فليس ثمة علاج أقوى في أي مكان. (ظهرت قصة غالتي وسيتيل في العدد الصادر في أغسطس/آب من مجلة ناشيونال جيوغرافيك، وهي جزء من مشروع مستمر يحمل الوسم #NGwatershedstories).

شيئاً فشيئاً بدأت أستمتع بتلك القيود الإبداعية في إنستغرام، وكيف يرغمك هذا التطبيق على التخلي عن كثير من الأشياء والتنبّه أكثر إلى الأساسيات. ثم بدأت استخدام الوسوم (الهاشتاغ) لأضع المنشورات في سياق حقيقي، كاسم القرية مثلاً أو اسم القبيلة، أو القضية التي أتناولها، والتي تظهر عادة في العنوان أو مصدر الخبر. وبعدها صرت أستخدم وسوماً خاصة لتنظيم منشوراتي ليصل إليها من يرغب في متابعتي على إنستغرام، أو ليصل متابع الصفحة لقصة ما من بين القصص التي نشرتها.. كنت في نهاية كل قصة عن بحيرة توركانا مثلاً أضع وسم (#jadeseaseries2014)، لأشير إلى الاسم المشهور للبحيرة. يقوم إنستغرام بشكل فوري بأرشفة الصور حسب تاريخ النشر، وعند الضغط على الوسم (وأدعوه «وسم السلسلة») فإنه ينقلك إلى صفحة تشتمل على أكثر من 30 قصة عن بحيرة توركانا.
لقد كتبت آلاف الكلمات على

ضفة تلك البحيرة. كان عدد المتابعين يزداد بسرعة، وقد أربكني ذلك قليلاً. حين قاربت على الانتهاء من هذه التجربة، وضعتُ من غير تخطيط مسبق سجلّا لعملية كتابة القصص لناشيونال جيوغرافيك. والأهمّ من ذلك أنني نقلتُ صورا للحياة والمعاناة في مكان لم يسمع به الكثير من الناس، كما لن يزوره سوى القليل. لم أمتلك طريقة ذات منهجيّة معتمدة لقياس الأثر الدقيق الذي حققته القصص التي نشرتها في تلك السلسلة، فلست أملك مقياساً لمعرفة مدى وصولها إلى المتابعين أو طريقة لتصنيف المتابعين حسب العمر أو مستوى الدخل. ولكن على أقل تقدير كان هنالك مئات الأشخاص الذين لا أعرفهم ولم ألتق بهم يرتادون صفحتي يومياً لمتابعة قصصي، وقد يصل هذا الرقم إلى عدة آلاف على أحسن تقدير. لقد نُشرت المقالة الطويلة التي أعددتها خلال هذه الرحلة في العدد الصادر في أغسطس/آب 2015 لمجلة ناشيونال جيوغرافيك، وهي مجلة يقرؤها الملايين حول العالم. ولكني أشعر أن تلك السلسلة التي نشرتها على إنستغرام هي إنجاز أهمّ من تلك المقالة من عدة أوجه.

إن مهمة كاتب المقالة تتمثّل في البحث عما يمكن من أطراف «الحقيقة» وجمعها معاً في مقالة متماسكة. أما في إنستغرام، فكانت كل قصة طرفاً من الواقع، وقد جمعت من أطراف هذا الواقع ما لا يسعني إطلاقاً وضعه في مجلة. لقد شكّلت تلك المقالة المنشورة في المجلة وتلك السلسلة في إنستغرام مادة وثائقيّة ضخمة، لن تعرف المجلة غالباً ما يمكن فعله بها. صحيح أنها ليست مرتبة بشكل مثالي، ولكنها كانت تجربة قيمة لهذا التطبيق، وقد حققت من خلاله رغبتي في إيصال المزيد من الوجوه والأصوات والقصص إلى الآخرين.

وبعد تلك التجربة الأولية انطلقت في كتابة المزيد، ووجدت شيئاً من التجارب الملهمة السابقة في الكتابة القصيرة الأدبية أو غير الأدبية. كنت أحياناً أفكر بإنستغرام وأنا أتصور في ذهني قصص ريك براغ القصيرة المليئة باللحظات التي تحرّك المشاعر والتفاصيل ذات الأثر الحاضر. كما تأثرت بأشكال الكتابة التقليدية اليابانية، كفنّ الهايغا الذي يمزج بين قطعة من شعر الهايكو، الذي يصف عادة المزاج والطبيعة، مع بعض الرسوم البسيطة. كما أعرف بعض الكُتاب في إنستغرام الذين تأثروا بكتب الرسوم والروايات المصورة وفنّ كتابة الأغاني.

وقد تأثرت كذلك بالعديد من المصورين الصحفيين الذين أثبتوا حجم الفرصة الكبيرة التي توفرها منصّة إنستغرام في مجال العمل الوثائقي الاجتماعي. من بين الأسماء المهمّة مات بلاك (Matt Black) صاحب سلسلة «جغرافية الفقر» (Geography of Poverty) حيث تنشر الصور في موقع «MSNBC» بالإضافة إلى حسابه الشخصي. هنالك أيضا رادكليف روي (Radcliffe Roye) الذي يضيف إلى الصور مقالات شخصية جدا عن الهوية، ومنهم كذلك ديفد غاتنفيلدر (David Guttenfelder) الذي أنشأ حساباً على إنستغرام لنشر صور من كوريا الشمالية. من الحسابات المفضلة لدي كذلك مشروع تعاوني مع كلية الدراسات العليا في الصحافة بجامعة مدينة نيويورك، يحمل اسم «سجن يوميّ» (Everyday Incarceration) يتناول حياة السجناء وعائلاتهم والمجتمعات التي يعيشون بها.

أتجنّب في أغلب الأحيان استخدام الأساليب والتقاليد الصحفية في كتابتي. أهملت مثلاً أسلوب التركيز في الفقرة الأولى، ولم أعتمد على سرد الحقائق، وأعني هنا المعلومات الباردة التي أطلق عليها أحد طلابي مرّة «المعلومات المزعجة». كما لم أتقيد بالتوثيق ولا برأي الخبراء أو المؤسسات، بل كنت أُسقط ذلك من كتابتي بكل سرور. إنستغرام ليس مكاناً للأخبار ولا للتوضيحات الدسمة، فلهذه المهام منصّات أخرى، وهو لا يستوعب النماذج التقليدية من الكتابة المعتمدة في الصحافة أو التلفاز.

لكن دعوني أكن واضحا، رأيي هذا لا يعني أنني أتحلل من الالتزام بأخلاقيات الصحافة الأميركية التي لطالما تقيّدت بها، فكل ما أفعله مبني على الحقائق المنقولة والمشاهدات المباشرة. لقد منحني التخلص من الطرق القديمة شعوراً بالتحرّر، لكنني لا أشعر بأن ذلك أعفاني من مسؤوليتي الصحفية. ما أعنيه أنني أختار استبعاد أو تجاهل الأشياء التي قد تربك القصة على نحو غير مبرر، أو تمنعها من الدخول إلى حيز الضوء. على كل كاتب وكل محرر وكل مطبوعة أن يتخذوا قراراتهم الخاصة بشأن القواعد التي ستحكم استخدامهم لإنستغرام. نصيحتي هي أن يُترك الموضوع فضفاضا من حيث الأسلوب بأكثر مما قد يبدو مريحا في البداية.

لعل ذلك كان أسهل بالنسبة لي لكوني صحفيا حرا لا أعمل تحت مظلة مؤسسة أكبر، ولأنني تمكنت من تجاهل حلقة الأخبار تماما أو توظيفها لخدمتي. في سبتمبر/أيلول 2014 مثلا، سافرت إلى مخيم كاكوما للاجئين، التابع للأمم المتحدة، والواقع أيضا في شمال كينيا، وبدأت أعد عنه سلسلة لإنستغرام بُعيد أن غمر المخيمَ فيضانٌ هائل، ودفع انفجار للعنف القبلي لاجئيه إلى الهرب. قاومت إغراء الكتابة عن تلك الأخبار أو تداعياتها لأنني كنت أعرف أن جمهور إنستغرام -أو إنستغرامي أنا على الأقل- لم يكونوا يستخدمون التطبيق بهذا الشكل. لكن لاحقا، حين أعلن الرئيس أوباما خطته لتطبيع العلاقات مع كوبا، أصبحت الأخبار مشبكا سمح لي بالعودة إلى العمل الذي أنجزته في الجزيرة عام 2008.

بحثت في أرشيفي عن صور، ثم غطست في دفاتري للبحث عن قصص يمكنني ربطها بها. ولأن المواد كان عمرها بضع سنوات، فقد أوضحت ذلك بنشر التاريخ في أعلى كل منشور، وكتبتها بصيغة مذكرات سفر. في إحداها، وصفت قيادتي لسيارة مستأجرة في أنحاء كوبا، مصطحبا معي كل مسافر متطفل أجده في طريقي، كما ركبت معي أجمل امرأة التقيت بها في حياتي، وهي جندية كوبية سابقة ذات ندب طويل داكن على وجهها.

كما كتبت عن مزارع فقير امتحنني حول أسعار السيارات والدراجات والبيوت في أميركا. وباستخدام صيغة المتكلم، وبتصرّف، كتبت قصة محارب في حملة فيدال كاسترو بأنغولا في الثمانينيات، حين أرسل آلاف الجنود للقتال من أجل نظام شيوعي. كانت تلك قصة شبه مخفية في الولايات المتحدة. هذه أيضا قصة لا ينتهي الاهتمام بها -وهي تقريبا نظيرة قصة حرب أميركا في فيتنام- ورغم أنها سحرتني، فإنني كنت أجد نشرها في مجلة مصقولة أمرا مزعجا.

مؤخرا، كانت الأخبار حاضرةً كذلك في سلسلة كتبتها من كردستان العراق (شملت مادة حول مقاتل «داعشي» قابلته)، دون أن تكون موجّهة لها، في الوقت الذي كنت فيه في مهمة لمجلة ناشيونال جيوغرافيك وأعمل أيضا على مادة حول مهاجر شاب من غامبيا، احتجزه حسن النية البيرقراطي في صقلية.

خلال الشهرين الماضيين، أتممت كذلك نوعا جديدا من التعاون على إنستغرام مع راندي أولسن، شريكي الميداني في كينيا. في يوليو/تموز، قبيل نشر قصتنا حول بحيرة توركانا، نشرنا سلسلة من الاسترجاعات (flashbacks) لعمل أنجزناه عام 2009 إلى الشمال من البحيرة. بعدها، في أغسطس/آب حين نُشرت قصة بحيرة توركانا، نشرنا سلسلة أخرى مكونة في معظمها من قصص وصور لم تظهر في المجلة. هذان المشروعان شكّلا معا رحلة سردية عبر الحدود والأحواض المائية المهددة. نشرنا قصصا بشكل يومي تقريبا على عدة حسابات على إنستغرام، من بينها حساب ناشيونال جيوغرافيك، مانحين سياقا بيئيا وثقافيا -أو مجرد قراءة خفيفة لاستراحة الغداء- لملايين المتابعين.

هذا التعاون المصمم للهواتف والأجهزة اللوحية (رغم أن والدي ما زال يستخدم حاسوبه المحمول لمشاهدته) كان مدهشا حتى الآن، على الصعيد الشخصي على الأقل. فالتفاعل الذي تلقيناه (الإعجابات والتعليقات التي تسبب مزيجا من الإثارة والإدمان) فاقت تصوراتنا، وتمت مشاركة قصصنا وإعادة نشرها أكثر من ألف مرة. ما يكشفه ذلك أن جمهورنا لا يكترث لعنصر الزمن، إذ لم يكن زمن التقاط الصور مهما، بل الأصوات والأجزاء والعلاقات التي تم تشكيلها بين الكلمات والصور.

كثير من هذا كله كان ممتعا لكنه لا يزال عملاً، وحتى الآن، لا أحد يدفع لنا لقاءه. ناشيونال جيوغرافيك مستعدة لنشر تجاربنا بسرور، لكن هذا جهد أتى بدافع الشغف. لقد سُئلت مؤخرا إن كان إنستغرام رخيصا، تافها، وليس مكانا مناسبا للصحافة الجادة. هذه النقطة دائما ما تربكني -أعني، في النهاية، افعلوا ما شئتم- لكن كأي تطبيق إعلام اجتماعي، فإنستغرام يعكس المجتمع الذي يستخدمه، وهو في هذه الحالة مجتمع يكاد يكون بحجم سكان الولايات المتحدة.

أنتج الكاتب جيف شارلت ملفا شخصيا مذهلا -معدا لإنستغرام فحسب- عن امرأة تُركت وحدها تقريبا في صراعها مع الأمراض العقلية.. جوناثان د. فيتزجيرالد -وهو طالب دكتوراه في جامعة نورث إيسترن- يدرس كيف تعمل سرديات إنستغرام، ويبني أرشيفا منها.. راندي ر. بوتس يستخدم التطبيق ليكتب عن المثلية الجنسية في تكساس.. الصحفية بلير بريفسمان تشارك قصصا حول عربات الكلاب والمشاهد الطبيعية القارسة الموحشة.. إدارة أمن النقل تنشر صورا مما يتم مصادرته في نقاط أمن المطار، كاشفة كم الناس الذين يحاولون إدخال القنابل اليدوية إلى الطائرات. وقد كنت على تواصل مع طالب عراقي يستخدم إنستغرام لنشر قصائد بالإنجليزية حول معايشته العنفَ يومياً في حياته وحياة عائلته.

هل تجعل هذه الاستخدامات إنستغرام -والمنصات الهاتفية ذات الصلة كفيسبوك وسناب شات وڤاين وتويتر- يبدو تافها؟ الجواب بالطبع، هو لا.

كلما استخدمتُ التطبيق أكثر وجدتُ المزيد من الإمكانات لاستخدامه بصورة غير تافهة. في منتصف يونيو/حزيران، قرأت مادة في صحيفة لوس أنجلوس تايمز بعنوان «سان برناردينو.. مدينة كسيرة» بقلم جو موزينغو وصور فرانسيس أور. لقد قدمت هذه المادة -المعدّة أصلاً للنشر في صحيفة- رواية قوية وجذابة، وبنت الصحيفة صفحة إلكترونية لتجميع المشروع، تشمل مساحة للنقاش والتعليقات، لكن حين بحثت في صفحة الصحيفة على إنستغرام، لم أجد سوى منشورات هزيلة ذات علاقة بتلك المادة.

لو كان موزينغو وأور يشبهانني، لعادا من جولاتهما الميدانية بدفاتر وأقراص صلبة ممتلئة.. لقد أحببت عملهما وأردت الاطلاع على المزيد منه.. تخيلوا كيف كان يمكن استخدام المقابلات والشخصيات والمشاهد «الزائدة» -تلك التي لم تصمد حتى النسخة النهائية من المادة- على وسائل الإعلام الاجتماعي لتحسين الربط مع المادة المطبوعة أو

لخلق سلسلة منفصلة من سان برنادينو.. أي جمهور جديد كان يمكن أن تصل التايمز إليه؟ أي قصص أخرى كان يمكن روايتها؟ مثال آخر على هذه الفرص ظهر في نيويورك تايمز التي نشرت في وقت سابق من هذا العام سلسلة أسمتها «مهمة أميركا» (Assignment America). ترويسة أول مادتين وصفتْهما بأنهما تحاولان «استكشاف التغيرات في السياسة والثقافة والتكنولوجيا الأميركية بناءً على العمل الميداني والتجارب الشخصية لصحفيي نيويورك تايمز في أنحاء البلاد».

يبدو هذا ممتازا، ولعلّه مشروع سيودّ الكثير من الكتّاب الانضمام إليه. هذا الاستخدام البسيط لعبارة «التجارب الشخصية» يشق باباً فتحته التايمز بتردد. لقد استغلت الصحيفة إنستغرام أكثر من الكثير من الصحف والمجلات، رابطةً حسابها بصفحة إلكترونية خاصة يستطيع المتابعون من خلالها متابعة قصص محورها الصورة. هل فكر المحررون باستخدام إنستغرام لأشكال أخرى من المواد المعتمدة على المزج بين الصورة والقصة؟ سلسلة

كانت زوارق الكانو الخشبية تبدو دوماً خرقاء، نصفها تحت الماء وتتأرجح كالرجل الثمل بعد ليلة شراب طويلة.. إنها أشبه بقطعة من حطام سفينة.. سألت مرة عن صانعها، فأشار الصيادون نحو الشمال إلى إثيوبيا، تلك المملكة المتلاشية من الأشجار.. أشياء كثيرة أتت من هناك، متجاوزةً الدلتا والأسلحة والأسماك والشائعات الكثيرة عن الموت أو التمرّد.. أتت من هناك أيضاً قوارب عائمة مصنوعة من النبات، وبين فينة وأخرى كانت تظهر مجموعة من القوارب الصغيرة تأتي نحو البحيرة.. كانت في معظمها قوارب صغيرة خشبية، وفي بعض الأحيان الأخرى كان يظهر قارب كبير. كان الكاهن المحلي -وهو رجل ألماني- يذهب إليهم سابحاً لاستقبالهم.. تخيّل منظر هذا الرجل وهو يخرج من الماء بشعره الطويل ووجهه الداكن كالفجر.. كان يسير مع هذه القوارب أحياناً جهة الجنوب دون أن يخاف من التماسيح. لقد حدث شيء ما غريب أثناء إقامتنا هناك.. رأيت تلك القوارب تصل في بعض الليالي وهي تحترق، واحدا تلو الآخر.. كنت أحدق في الظلمة قبل النوم وألاحظ موقع تلك القوارب المحترقة في الأفق.. استيقظت بعد بضع ساعات أهذي من الحرّ.. وجدت القوارب أبعد، والنار لا تزال تضطرم بها. كان هذا المشهد قد اختفى في الصباح. وظننت أن ما رأيته مجرد حلم.. سألت الناس، ولكن لم يجبني أحد عن سبب اشتعالها أو عما يقوم به الإثيوبيون في تلك الناحية، ثم قلت: الأفضل أن أكفّ عن البحث عن إجابات، فالغموض أحياناً أفضل من الحقيقة، وأردت أن تبقى ذكرى تلك الليالي على اشتعالها في ذاكرتي.

«مهمة أميركا» لا تزال في بداية طريقها، وقد لا تستمر، لكنها تمثّل إمكانيةً عظيمة للسرد القصصي عبر الإعلام الاجتماعي.. نظرة سريعة وحسب تظهر أن وسم #assignmentamerica (مهمة أميركا) قد استُخدم ثماني مرات فحسب، لم تكن أي منها من قبل التايمز نفسها.

هناك بالطبع قلق تحريري مبرر تجاه إنستغرام، على غرار الحال مع فيسبوك. فرغم أن المستخدمين يحتفظون بملكية المحتوى الخاص بهم، فإنهم لا يتحكمون به إذ يمكن أن يعاد استخدام صورهم ونشرها. لكن في الوقت الذي أصبح فيه التواجد على الهواتف المحمولة أمراً لا مفرّ منه، تتلاشى المقاربات المتزمتة تجاه المحتوى. فما الذي كانت لوس أنجلوس تايمز ستخسره لو نشرت المزيد من عمل موزينغو وأور، خاصة إن كانت المادة الأساسية منشورة على الإنترنت مجانًا؟ ماذا كان يمكن لنيويورك تايمز أن تكسبه لو فتحت سلسلتها -بكل ما في ذلك من فوضى وديمقراطية- للسرد القصير على الهواتف؟

لعل المخاوف المؤسسية هي ما يبقي هذا النوع من الأعمال خارج إنستغرام، أو لعله ببساطة الانشغال الذي يغمر غرف التحرير. المحررون الذين أعمل معهم في ناشيونال جيوغرافيك -التي تحظى بأكثر من 30 مليون متابع- يدعمون مشروعي على إنستغرام، لكنهم ما زالوا لا يعرفون كيف يمكن إدراجه ليكون تحت اسم المجلة.. مؤخرا كانت هناك أحاديث حول تغيير ذلك، لكن من غير الواضح بعد كيف ومتى.

نخطئ إن ظننا أن هذا الشكل من الكتابة القصيرة يمكنه أن يحل مكانَ الكتابة الواقعية المنقولة بعمق والمخططة بعناية.. قلت من قبل إن العمل لإنستغرام يجب أن لا يكون كالكتابة للصحف أو حتى للمجلات، ولست أدعو إلى أن يرمي الكتاب بأحلامهم بكتابة نصوص طويلة، فما نتحدث عنه هنا في النهاية يتعلق بالقصص التي تصلح للهواتف.

الكتابة لإنستغرام مختلفة وتجب مقاربتها لهدف مختلف، وربما أكثر نقاءً: لمتعة الاكتشاف والكشف. الكتاب المدرَّبون على أن يلاحظوا ويجمعوا وأن يختبروا ويحللوا، لديهم في هذا التطبيق فرصة منعشة للابتكار، ليروا كيف يمكن لهذه المهارات أن تطبق في السرد القصصي الخاص بالهواتف. أخطط لبدء تجربة أخرى في وقت لاحق من هذا العام في مجلة «فرجينيا كوارترلي ريفيو» لأرى إلى أي مدى يمكن أن تُستغل هذه الفرصة.

سنجمّع أنا وزميلي جيف شارلت ومحررنا بول ريبز مشروعا يستضيف بصورة دورية كتّابا على حساب المجلة على إنستغرام.. كل منهم سينشر من ثلاث إلى خمس مواد تتعلق بمواضيع من كافة أنحاء الولايات المتحدة والعالم، كما نأمل. ستُدفع لهم مبالغ متواضعة، وستُجمع منشوراتهم في مادة مكتوبة، ينشرها موقع الفصلية. وأفضل هذه الأعمال سينشر في العدد المطبوع من المجلة.

هذه التجربة ستكون سردًا في أبسط أشكاله: الكاتب كمشاهد أو مراسل، ينقل لنا ما لديه من مكان لن يصله جمهورنا على الأغلب. على حد علمنا، سيكون هذا المشروع الأول من نوعه، ولا نعلم كيف ستكون نتيجته.. المؤكد أنه لا يتعلق أبدا بإنستغرام كعلامة تجارية بالقدر الذي يتعلق فيه برغبتنا في حكاية القصص ونشرها، خاصة حول أماكن وأشخاص لا نراهم في التيار السائد. هناك عدة تطبيقات كان بوسعنا اختيارها، وسرعة الابتكار في عالم الهواتف المحمولة تشير إلى أن عدد التطبيقات سيزيد أكثر. لكن حتى اللحظة، يمكن القول إنّ إنستغرام أداة يمكنها جمع القصص وتوزيعها بشكل أوسع من الكثير من وسائل الإعلام الاجتماعي الأخرى.. وببساطة، نحن نحبه. لقد تنبهت مؤخرا إلى المزايا الخاصة لهذا التطبيق، وكان ذلك في فبراير/شباط الماضي خلال زيارة لمكاتب إنستغرام الرئيسية في سيليكون فالي، حيث قدمتُ ورشة حول كتابة القصص القصيرة. في ظهيرة منعشة، جلست أستمع لديفد غاتنفلدر وهو يصف حبه لإنستغرام، ومليارات الصور فيه التي يعكس كل منها مربعا صغيرا من الضوء.. غاتنفلدر -وهو مصور سابق كبير في وكالة أسوشيتد برس بآسيا ولديه أكثر من 800 ألف متابع على التطبيق، كان يريني صورا من اليابان ومونتانا وأيوا وكوريا الشمالية وغيرها.. قال حينها إن إنستغرام قد غيّر طريقة فهمه لإرسال صوره إلى العالم.

«هذه أكبر وأهم منصة موجودة»، قال غاتنفلدر.. «القدرة على الوصول التي يمنحها هذا الشيء مهولة.. عدد الناس الذين يرون أعمالي على إنستغرام أكبر من أي عدد يمكن أن يراها في مجلة مثل ناشيونال جيوغرافيك».

أول ما خطر ببالي أنني أتفق معه، أمّا الأمر الثاني فهو كيف يمكن أن أشرك المزيد من الكتّاب. قريبا، سنبحث عن أجوبة لهذا السؤال في «فرجينيا كوارتلي ريفيو».

يمكن قراءة المقال من مصدره بعنوان
How to Tell Powerful Narratives on Instagram
من موقع: **www.niemanreports.org**

برناردو توبار.. العدسة الأقدم في إلباييس الإسبانية

سارة حابيبي

مجموعة من اللاجئين يتقاسمون آخر قطرات الشاي في الليلة الأخيرة قبل فض مخيم أيدوميني. تشارك الصورة في معرض «بدون مصفاة، الواقع الذي لا تريد أوروبا أن تراه».

متيقنا من كلماته، هكذا بدا وهو يخبرني مبدأه «حين يصافحني سياسي، أعلم أني فعلت شيئا ما لم يكن عليّ فعله فيؤنبني ضميري، وحين يسمح لي الشرطي بالقيام بمهمتي التوثيقية أدرك أني هرِمتُ جسدا لا قلبا».

لم يكن يظن أثناء دراسته العلمية أن عليه أن يهجر الطب والعدسة الطبية لصالح عدسة الكاميرا. أربعون سنة مضت على تركه دراسته العلمية والتحاقه بصحيفة إلباييس الإسبانية التي تعتبر من أهم الصحف العالمية والتي تتعاون معها ويكيليكس. سافر إلى أكثر من مئة دولة ليغطي أحداثا عالمية.

بالنسبة له فإن من الصعب على من يعمل لإيصال المعلومة أن يجد الراحة في أي مكان، لأن رواية العاملين في حقل الصحافة عادة ما تخالف الرأي الرسمي، وبالتالي لا يوجد بلد يتمتع فيه الصحفيون بأريحية العمل بشكل تام.

إنه برناردو بيرس توبار أقدم مصور صحفي في صحيفة إلباييس الإسبانية. في هذا الحوار الخاص لمجلة «الصحافة» يحكي لنا جزءا من تجربته ومشاهداته، ونتعرف من خلال حديثه على وضع الإعلام في إسبانيا.

أول الحكاية..

«كنت أدرس الطب في الجامعة، كانت تشدني الصور العلمية فكنت أحاول أن أبحث عنها قدر الإمكان.. فجأة وجدت نفسي ممارسا لها.. ربما المحيط الذي

مجيد وسعيدة، سوريان في أحد المزارع اليونانية. الصورة تحكي رحلة اللاجئين المشاة الذين يختارون مجابهة اليأس بالأمل والبحث عن غد أفضل - 2016.

تأسيس إلبابيس وبداية التحول الديمقراطي

كنت أتواجد فيه ساعد على ذلك، فوالدي وأجدادي اشتغلوا في عالم المعلومة. أنا أعتبرهم من مدرسة غوتنبرغ غلاكسيا (1).

صادف تفرغي للتصوير بوادر تأسيس صحيفة إلبابيس، فكنت من أوائل الملتحقين بها.. هذه السنة نحتفل بمرور أربعين سنة على تأسيسها».

«قبل أربعين سنة من الآن، كنا نعيش حكما دكتاتوريا في إسبانيا.. كان الوضع متأزما، فبعد خروجنا من الحرب الأهلية كنا على موعد مع حكم دكتاتوري بقيادة فرانكو (2). كانت الساحة السياسية منقسمة إلى جهتين: جهة موالية لحكم الدكتاتور، وجهة لا تستطيع الإفصاح عن أفكارها. حرية التعبير كانت أكثر ما نفتقده في تلك المرحلة.. في ذلك الوضع السياسي، لم تكن هناك وسائل إعلامية مستقلة، بل كان معظمها يقوم بالبروغاندا وتغطية مصالح الحاكم.. توفي فرانكو في يناير/كانون الأول 1975، وفي فبراير/شباط 1976 تأسست صحيفة إلبابيس. يمكننا أن نقول إنها ردة فعل آنية لمجتمع وحاجته إلى التعبير وإلى إعلام غير حكومي..

هنا نستنتج تعطش المواطنين إلى وسائل إعلام مستقلة، ومن هنا كانت البداية التي ساعدت على تحقيق التحول الديمقراطي في إسبانيا.. لا نزال -بعد أربعين سنة- نتذكر نفس الحافز والمبدأ: التحقق من صحة الخبر، التوثيق الجيد، ثم تقديم المعلومات للقارئ.

تعتبر صحيفة إلبابيس اليوم الأكثر انتشارا في البلاد، وتعد مرجعا إعلاميا ليس في إسبانيا وحسب، بل في أميركا اللاتينية، وهي واحدة من الصحف الخمس في العالم التي تتعاون مع ويكيليكس.. في إسبانيا أن تُصنف الرقم الأول في المشهد الإعلامي لا يمنع عنك اضطهاد وسلب الحق في المعلومة، وأقصد هنا المعلومة المصورة والمعلومة المكتوبة».

المصور الصحفي

حين سألتُه عن تعريف المصور الصحفي، ظل متمسكا بأن لا فرق بين الصحفي والمصور الصحفي، لأن مهمتهما واحدة. فتوبار يعتبر أن المصور الصحفي شخص يأخذ طريقا مخالفا للكلمة ويحاول أن يعكس المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وأيضا السعادة والجمال وشساعة العالم، ليس عبر نبل الكلمات، وإنما عبر وفاء الصورة. فهل تغيّر مفهوم التصوير الصحفي؟

مبدأ واحد.. إيصال المعلومة

إن المبدأ واحد والهدف غير متغيّر.. إذا أردنا الحديث عن تطور علم الصورة، سنتحدث بداية عن الجانب التقني، فتوبار يرى أن استعمال الكاميرا قد تغيّر كثيرا.. «دعيني أشير إلى أن ظهور العالم الرقمي وتطوره كان مرتبطا بالصور، فأول عنصر ولد من رحم العالم الرقمي كان صورة.. نحن كمنتجي الصور -سواء الفيلمية أو الفوتغرافية- يجب أن نتماهى مع التطور التقني، لكن مع الحفاظ على الرسالة.. بالإضافة إلى تقديم الصورة الحل، لأن الواقع الذي نعيشه يفرض علينا الانخراط في تقديم حلول لا في افتعال

احتفالات دينية في معبد «هارمندير صاحب» في الهند، وهو أبرز أماكن العبادة في العقيدة السيخية.

أزمات.. سنة 1991 كنت أرتب للسفر إلى أميركا اللاتينية لتغطية أحداث مرور 500 سنة على اكتشاف تلك القارة، لأنه كان يعني لنا الكثير كإسبان.. وثقت للحدث بكوداك.. كوداك تلك الرائعة (يقولها والحسرة قد علت محياه) رافقتني من تشيلي إلى الحدود مع أميركا الشمالية.. بعدها بسنتين فقط، كان فرضا علينا الانخراط في التحول الجديد نحو الديجيتال».

موهبة أم مسار أكاديمي؟

«مفتاح العمل حسب خبرتي ليس الدراسة، وإنما الموهبة العاقلة.. نعم، موهبة المرسل في إيصال الرسالة. توفر عناصر أساسية أمر واجب، أهمها: الإبداع والجرأة.. في الكثير من الأحيان من يقوم بهذا العمل ويبدع هم من لديهم جرأة العمل، يولدون ليكونوا صحفيين لا أكثر، يقتنصون اللحظات.. التكوين الأكاديمي هو واجب وإرادة من أجل تلقيح الموهبة بالمعرفة.. الخلاصة؛ لكي تكون صحفيا، عليك أن تكون صاحب القرار والقدرة على رواية ما تحس وما ترى، وترافق الحقيقة فقط».

الإعلام الإسباني وتحدي التحول الرقمي

«الإعلام في إسبانيا كالإعلام العالمي، فهو ضحية أزمتين: الأزمة الاقتصادية العالمية وأزمة تغييرات نموذج التواصل. أولا بسبب قلة الموارد المالية، أما ثانيا فبسبب تعدد المنصات وظهور أشكال جديدة في إرسال المعلومة، مما يفرض على المؤسسات خطوات جريئة لمسايرة المنصات المتجددة، الأمر الذي يتطلب كوادر جديدة أو تكوينات خاصة لطاقم المؤسسة».

العالم الرقمي جعلنا نخطئ ونعتذر

«في السابق كان هناك وقت للتفكير في العنوان والصورة المصاحبة للخبر.. الآن وسائل الإعلام فقدت القدرة على التركيز في موضوع الحدث وكيف ستقدمه، فقدت القدرة أيضا على التفاعل مع الأحداث الحزينة والسعيدة التي تحتاج اختيار الكلمات..

أصبحنا نخطئ في اختيار الصورة المناسبة ثم نعتذر، وأصبحنا نتلقى توجيهات حول الصورة المختارة والكلمات وحتى الألوان المستعملة.. فقدنا القدرة على التمعن مقابل ربحنا لتفاعل المتلقي وقدرته على التحليل وتوجيه الإعلام، مما قلل من حدة مسؤولية الجسم الصحفي».

الكلمة الأخيرة

«زرت أكثر من مئة دولة، وعانيت من المحاصرة أثناء محاولتي القيام بمهمتي، لكني لا أملك إلا أن أختار نفس التجربة إن عشت حياة ثانية.. كلمتي لكل الصحفيين الشباب: استمتعوا بكل لحظة في عالم الصحافة لأنها تجعلكم تعيشون أكثر من حياة. كما أقول لهم بأن الصعوبات لا توجد إلا أمام أبواب منازلهم، لأنك في المكان الذي تظنه يعرف الحرية قد تُحاصَر، وفي المكان الذي لا تسمع فيه مصطلح الحرية قد تتوفر لك السبل لتعمل بأريحية».

(1) غوتنبرغ غلاكسيا: نظرية فلسفية لصاحبها الفيلسوف مارشال مولكهان. تتأسس النظرية على إظهار الطريقة التي من خلالها تبرز أشكال التجارب ووجهة النظر العقلية والتعبيرية عبر وسيلة اللفظ بداية والطباعة فيما بعد.

(2) فرانسيسكو فرانكو: (1892-1975)، قائد عسكري تولى رئاسة إسبانيا من أكتوبر/تشرين الأول 1936 وحتى وفاته عام 1975. وصل إلى السلطة بعد الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939).

المصور الصحفي برناردو توبار

احتفالات دينية في معبد «هارمندير صاحب» في الهند، وهو أبرز أماكن العبادة في العقيدة السيخية.

صورة من حرب الخليج الثانية أو ما يعرف أيضا بعملية عاصفة الصحراء. أكتوبر/تشرين أول 1990.

صورة من حرب الخليج الثانية أو ما يعرف أيضا بعملية عاصفة الصحراء. أكتوبر/تشرين أول 1990.

بعد توليه الحكم في إسبانيا، الملك خوان كارلوس الأول يتجول في شوارع مدريد بعد وفاة فرانكو وبداية مرحلة التحول الديمقراطي.

مركـز الجزيـرة الإعلامـي للتدريـب والتطويـر
ALJAZEERA MEDIA TRAINING & DEVELOPMENT CENTRE